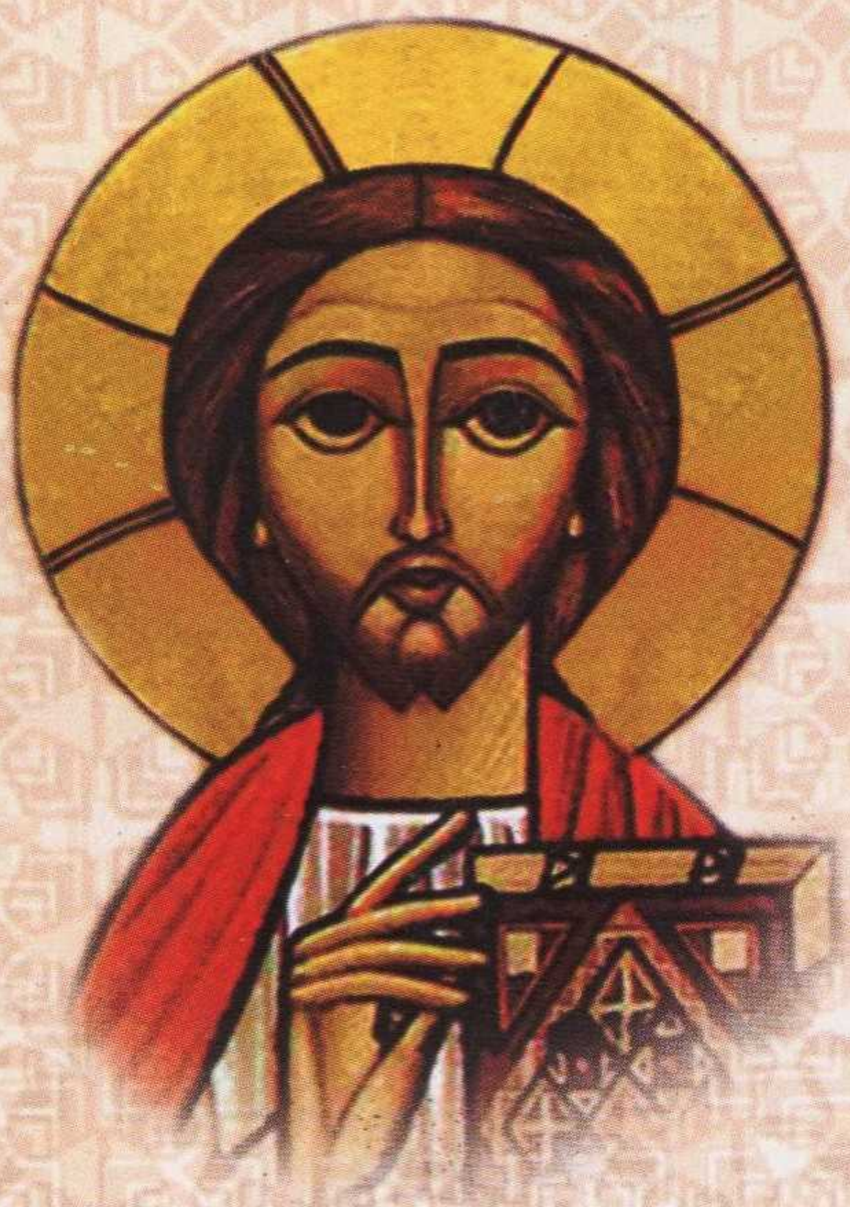

عظمة الإنسان

عند

القديس مار يعقوب السروجي

مع تعليقات مختصرة لبعض آباء الكنيسة الأوَّلين

إعداد القمص تادرس يعقوب ملطي

صاحب الغبطة والقداسة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

عظمة الإنسان

عند

القديس ماريعقوب السروجي

مع تعليقات مختصرة لبعض آباء الكنيسة الأوّلين

طبعة تحضيرية

٢٠٠٨

إعـداد

القمص تادرس يعقوب ملطي

كنيسة الشهيد مارجرجس

سبورتنج ـ الإسكندرية

بِاسم الآب والابن والروح القدس،
الإله الواحد. آمين.

اســـم الكتـــاب : عظمة الإنسان عند القديس مار يعقوب السروجي.
إعـــــــــداد : القمص تادرس يعقوب ملطي.
الطبعـــــــة : طبعة تحضيرية ٢٠٠٨م.
الناشـــــــر : كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج.
المطبعـــــــة : مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط.
موبايل: ٠١٢ ٢١٥٢٨٥٦ & تليفاكس: ٠٣ ٤٥٩٦٤٥٢
رقـــم الإيـــداع : ٢٠٠٨/١٦١٧٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N. : 977 - 392 - 180 - 8

ملطي ، تادرس يعقوب
عظمة الإنسان عند القديس ماريعقوب السروجي مع تعليقات مختصرة لبعض آباء الكنيسة الأولين / إعداد تادرس يعقوب ملطي .ـ الإسكندرية : كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس ـ سبورتنج ، ٢٠٠٨ .
٥٦ ص ؛ ٢٣ سم .
تدمك ٨ ١٨٠ ٣٩٢ ٩٧٧
١ ـ أقوال الآباء
٢ ـ الإنسان ـ عقائد مسيحية
أ ـ العنوان
٢٧٤,٣

عظمة الإنسان الحقيقية

تراث ثمين مع فكرٍ معاصر

مع التقدم السريع في التكنولوجيا الحديثة، والتطور المستمر في الفلسفات المعاصرة، يعاني الإنسان في العالم كله من تزايد نسبة حالات الإحباط والمتاعب النفسية، بل وتزايد نسبة الانتحار حتى بين الفتيان. هذا الأمر الذي لم يُعانِ منه آباء الكنيسة الأولين، سواء كانوا رعاة أو نساك أو لاهوتيين. أما أحد العوامل الرئيسية لعدم معاناة المؤمن الحقيقي من هذه المتاعب بالرغم من تعرضه لمشاكلٍ ومحنٍ كثيرة هو إدراكه مدى عظمة الإنسان الحقيقية.

كثيرًا ما يدعونا آباء الكنيسة الأولون بطريقٍ أو آخر أن نقف معهم في دهشة أمام حقيقة الإنسان ككائنٍ هو أعجوبة الأعاجيب إن صح القول. نقف بفرحٍ وتهليلٍ، مع الاعتزاز لا بما نقتنيه فحسب، وإنما ما هو أهم ما وهبنا الله عليه بكوننا بشر، ويبقى يهبنا حتى ندخل إلى الأمجاد السماوية.

أبرز ما يقدمه لنا القديس مار يعقوب السروجي، رجل الألحان الدائم التسبيح، والكارز دومًا بضرورة وقوف الإنسان على حقيقة كيانه من جهة جسده كما من جهة نفسه، أيضًا عقله وعواطفه، حياته على الأرض كرحلة ممتعة في رفقة الله نفسه ومستقبله الأبدي. إنه مخلوق مُحيِّر حتى للسمائيين، يرون فيه المخلوق الذي يدعوهم للدهشة من جهة حب الله الفائق له، مع الدعوة العجيبة التي يدعوه إليها خالق السماء والأرض لينضم إليهم يشاركهم الأمجاد الفائقة أبديًا.

اعرف نفسك!

ما كان يشغل فكر **القدِّيس إكليمنضس السكندري** وقلبه معرفة الإنسان لحقيقة نفسه. شعاره: "اعرف نفسك، تعرف ابن الله. اعرف ابن الله تصير شبيهًا به".

يقول **القديس أغسطينوس:**

- ❖ إنني لا أنجح في إدراك كل ما أنا عليه.
- ❖ من أنا يا إلهي؟ ما هي طبيعتي؟ حياة متسعة قوية متباينة ومتعددة الأشكال.

❖ أشتهي أن أعرف الله والنفس. ألا تشتهي شيئًا آخر؟ لا.

ويقول **القديس باسيليوس الكبير:**

❖ ادرس ذاتك من أنت يا ترى، واعرف ما هو جوهرك.

إن جسدك هو رهن الفناء، وأما نفسك فهي بنت الخلود.

واعلم أن لنا حياتين: حياة جسدية سريعة الزوال، وحياة أخري روحية لا تعقبها نهاية، ولا يعتريها فناء[1].

❖ انتبهوا لأنفسكم، ليس لما هو لكم ولا لما يحيط بكم، وإنما لأنفسكم بالذات، لأنه يوجد فارق بين هذه الأمور. فالنفس هي ذاتنا، هي نحن وهي صورة الله فينا. وما لنا فهو جسدنا وحواسنا المتعلقة بالنفس؛ وأما ما يحيطنا فهو الغنى ومختلف طيِّبات الحياة[2].

والآن ماذا رأى القديس مار يعقوب السروجي في الإنسان؟

١. الإنسان خليقة الله المحبوبة لديه.

٢. انفراد الإنسان بصورة الله دون سائر المخلوقات.

٣. الإنسان ملك (أو ملكة) أُعد له العالم قصرًا ملكيًا.

٤. الإنسان في عرسٍ دائمٍ مُتشح بحلة نورانية.

٥. الإنسان عالم مصغر بديع.

٦. الإنسان خليقة مائتة وخالدة معًا.

٧. نفس الإنسان فردوس مثمر.

٨. الإنسان كائن مُسبح: موسيقار أم آلة موسيقية؟

٩. الإنسان كائن محيّر للسمائيين.

١٠. الإنسان مدعو لرؤية الله والمعرفة الإلهية.

١١. الإنسان والشركة في صلاح الله.

١٢. الإنسان والسعادة الدائمة.

١٣. الإنسان كائن دائم النمو هنا وفي الدهر الآتي.

١٤. الإنسان كاهن يقدم ذبائح التسبيح.

---

[1] راجع الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، ص ٢٤٨-٢٤٩. تعريب الدكتور نجيب حجّار.

[2] *Hom. 3, in illud, PG 31:203 a*

١. الإنسان خليقة الله المحبوبة لديه

يعلن **القديس إكليمنضس السكندري**، أن الإنسان هو أشرف المخلوقات[1]، وأعزها لدى الله، كان في فكره قبل الخليقة. ففي محبته اللانهائية خلق الله الكون لأجل الإنسان، ثم خلق الإنسان على صورته ومثاله ليتذوق الشركة معه. يقول **القديس إكليمنضس السكندري**: [بالحقيقة الإنسان عزيز في عينيّ الله، لأنه صنعة يديه؛ فقد أوجد الله الأعمال الأخرى في الخلق بكلمة أمر (أمرَ فكانت)، أما الإنسان فخلقه بنفسه، بيديه، ونفخ فيه من عنده. ما قد شكله الله أوجده على مثاله، إنما خلقه بنفسه لاشتياقه إليه في ذاته على حساب كل بقية الخليقة[2].]

يكشف لنا حديث **مار يعقوب السروجي** عن خلقة الإنسان بقوة عن مدى حب الله غير المنطوق به نحو الإنسان. بحق لقد أدركت خلال قراءتي له في هذا الشأن عبارة المرتل: "اشتهى الملك حُسنك" (مز ٤٥: ١١). وقول صفنيا النبي: "الرب إلهك... يبتهج بك شرحًا" (صف ٣: ١٧). فإن خلقة الإنسان في اليوم الأخير من الخلقة يُظهر بحقٍ مدى انشغال الله بالإنسان، واهتمامه به ليهبه سعادة فائقة.

وفي حديثه عن العظمة الحقيقة والعظمة الباطلة تحدث **القديس مار يعقوب السروجي**[3] في إبداع، حيث يُبرز حب الله الفائق نحو الإنسان. فقد زيَّن السماء بالكواكب، وهيّأ الأرض بالمخلوقات الجميلة، وقدَّمهما للإنسان لتكونا تحت سلطانه. **لقد أراد الله للإنسان أن يكون صاحب مجد وسلطان**، لكن بحسد إبليس سقط في العظمة الباطلة، ففقد عظمته الحقيقية. ومع هذا فقد سمح الله لآدم أن يعود إلى ما كان عليه من تراب لا ليذله، بل لكي لا يحيا إلى الأبد فاقد عظمته، إنما باكتشاف حقيقته ينال المجد خلال عمل المُخلِّص.

---

[1] *Paidagogos 1:3; l:8:63.*

[2] *Paidagogos 1:3; l:8:63.*

[3] صيمر "على العظمة" يُقرأ يوم الأربعاء من الأسبوع الثاني من الصوم الكبير.

٢. انفراد الإنسان بصورة الله

آدم - الصورة

أمران متكاملان يشغلان أذهان أكثر آباء الكنيسة الأولى، إن لم يكن أغلب الخدام والمخدومين، وهما **عظمة الإنسان، وعظمة حب الله الفائق له.**

وهب الله الإنسان نفسًا على صورته ومثاله، لكي لا يسحب قلبه شيء سوى الخالق المحب له. فخلال الصورة والشبه يشتهي الإنسان أن ينظر الله نفسه. ومن جانب آخر، يعاني الإنسان من الفراغٍ مادام يحمل هذه الصورة التي لا تعرف الاستكانة، بل تتحرك دومًا في تقدمٍ لا ينقطع، لكي تنال من فيض الأصل، فتزداد الصورة بهاءً وجمالاً.

يؤكد الكتاب: "هذا كتاب مواليد آدم، يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله عمله، ذكرًا وأنثى خلقه، وباركه" (تك ٥: ١- ٢). ربما يشير هنا إلى نوع من التبني، وقد أوضح لوقا البشير ذلك في عرضه لنسب السيد المسيح، قائلاً: "ابن آدم، ابن الله" (لو ٣: ٣٨).

قصة الله مع الإنسان هي قصة حب، حيث خلق الله الإنسان أيقونة حيَّة له، "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون..." (تك ١: ٢٦). وهبه أن يحمل صورته ليمارس سلطانه الملوكي على الخليقة الأرضية.

من أقوال الآباء في هذا الأمر:

❖ منْ مِنَ الكائنات الأرضية خُلق على صورة الله إلاَّ الإنسان؟

ولمن أُعطى السلطان على كل الطبيعة ومخلوقاتها ليختصها لذاته؟

إنه لشرف أصيل يكلل جبينه، ويسمو به إلى السماء، فوق الكواكب، أرفع من الشمس تشامخًا وعزة... ومع أنه أوضع منزلة من الملائكة لارتباطه بجسدٍ مادي، فقد وُهب قوة لفهم ربه وخالقه ومعرفته[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ لاحظ كيف يوجد في خلق الإنسان أمرٍ سامٍ جدًا لا نجده في خلق آخر، فخلق الله الإنسان على صورته ومثاله، الأمر الذي لا نجده في خلق السماء أو الأرض أو الشمس أو القمر.

---

[1] *Hom. In Ps 48, 8, PG 29:450 b.*

❖ الذي صُنع على صورة الله هو إنساننا الداخلي غير المنظور، غير الجسدي، غير المائت ولا الفاني. بهذه السمات الحقيقية تتصف صورة الله وبها تُعرف[1].

العلامة أوريجينوس

❖ حقًا إن الجمال الإلهي لا يُزيَّن بأي شكل، أو له هيئة ما، أو بجمال أي لون، لكن نتأمل سموه ببهاءٍ لا يُنطق به...

هكذا أولاً لتفهموا أن خالقنا أيضًا **رسم صورة لشبه جماله، بإضافة فضائل كما لو كانت ألوانًا، تُظهر ملوكيته بمسحة ألوان خفيفة كثيرة ومتنوعة**، حتى يمكن القول بأنه بها يُظهر فينا شكله الحقيقي، وليس بلونٍ أحمر أو أبيض، أو مزيج من هذه الألوان، أياً دُعي اسمها... وإنما عوض هذه استخدم الطهارة والحرية والتحرر من الشهوات، والطوباوية، والتغرُّب عن كل الشرور، وكل ما هو مثل هذا، الأمور التي تعين الإنسان أن يتشكل على شبه الله. بمثل هذه الألوان ميَّز الخالق لصورته طبيعتنا[2].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ الإنسان الذي يتأهل لرؤية نفسه أعظم ممن يُظن أنه أهل لرؤية الملائكة... ومن يُحسب أهلاً لرؤية خطيته، أعظم ممن يقيم الأموات بصلواته[3].

القديس اسحق السرياني

كثيرًا ما يستخدم **القديس مار يعقوب السروجي** تعبير **"إن آدم صورة الله النبيلة"**، ليعبِّر بها عن الطبيعة البشرية قبل السقوط.

يقول **القديس مار يعقوب السروجي**[4] إن الله أعطى النفس جمالاً لتكون أسمى من المخلوقات. وهبها الحرية والعقل والحكمة والفكر والحواس المملوءة تمييزًا. فاق جمالها كل المخلوقات الصامتة والناطقة والجسدية والخفية. لا تشبهها الملائكة. إنها عروس الملك، وحاملة شبه الكائن ربها، ومملوءة بجمالٍ إلهي، صورة النور والمركبة رفيقة السمائيين، تحسدها الشياطين.

---

[1] *In Gen. hom 1: 13.*
[2] *De Opificio Hominis, 5:1.*
[3] *Ascetical Homilies, 64.*

[4] الميمر ٣٠ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

❖ أراد الله أن يخلق آدم صورة لائقة، أيقونة محبوبة، شبه ربه، رأس الينبوع...

قال: لنصنع الإنسان على صورتنا وشبهنا أيضًا: عمل جديد لا شبيه له في العالم[١].

❖ لقد رسم فينا الرب صورته من أجل حنانه، وبنفس المراحم هذه سيقيمنا في اليوم الأخير[٢].

❖ ترك المخلوقات السامية والمتواضعة ليرسم له عليها صورته حين خلقها. وقد صوَّر جميع الكائنات في أشكالها، ولم يرسم له صورة إلاَّ على آدم. الأرض واسعة، والسماء عالية، والشمس بهية، والقمر جميل، ومسيرة العساكر مجيدة. عندما صنع كل هذا الجمال، لم يُسمع أن الرب صنع شيئًا على صورته، ماعدا آدم، صورة (الابن) الوحيد، ولأجله سُميَ صورة الله[٣].

❖ **ترك الله رؤساء الملائكة ليرسم صورته وشبهه في النفس البشرية.** لقد زينها بجمالٍ فاقت به جميع المخلوقات[٤].

❖ أول نعمة لا توُصف، هي أن الله عمل إحسانًا مع جنسنا، بخلقه على صورته[٥].

❖ صورته جعلتهم يقتنون الدالة، لكي يتضرعوا إليه بلا خجل بواسطة (صورته) الخاصة[٦].

❖ النفس خليقة نبيلة وجميلة، ولا تفوقها أية خليقة أخرى. إنها صورة الملك. وصورة اللاهوت النبيلة، ويفوق جمالها جمال كل المخلوقات. تأمل كم كان جميلاً نور اليوم الأول، لكن الله لم يرسم عليه صورة اللاهوت الجميلة. انظر إلى الجَلَد، الخيمة المبسوطة على كل المخلوقات، لم يكن هو أيضًا مستحقًا ليحمل صورة الملك، كذلك الشمس والقمر لم يستحقا بأشعتهما أن يحملا الصورة النبيلة[٧].

---

[١] المبمر ٧١.

[٢] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٨٠.

[٣] راجع المرجع السابق، ص ٩٦.

[٤] راجع المرجع السابق، ص ٩٦-٩٧.

[٥] راجع المرجع السابق، ص ٩٧.

[٦] راجع المرجع السابق، ص ١٠٨.

[٧] راجع المرجع السابق، ص ٩٠.

❖ **تطلع إلى النفس لتحبل بالمنظر كما تحبل المرآة وتحمل (صورة) من يتطلع إليها.** انظر إليها، لأنك لو ابتعدت ستفرغ من صحبتك. ومادام الناظر يتطلع إلى المرآة فإنها تحمل صورته. وإن ابتعد عنها فرغت، لأنه لا يمكث فيها. إنها تغتني برؤية من ينظر إليها. إنها فارغة بكليتها من الأشباه والصور مادام الناظر بعيدًا عنها، ولا يتطلع إليها. إنها تُترك في الفاقة والفقر، وقد يخرب حضنها، ما لم تعد تُزيح (تُزَّف) فيها الصورة. إذا كانت مستنيرة فليست جميلة بلا ناظر إليها. لا شيء فيها ما لم يتطلع إليها من يقتنيها. عندما ننظر إليها تحبل منه حالاً، فيدخل ويحل في حضنها، وتغتني به، وتعج بالجمال والصور والأشباه، لأن صاحبها نظر إليها، وهكذا تلبس الصورة الكبرى.

يا ابن الله أُنظر إلى النفس، فتمتلئ من جمالك. لا تبتعد يا رب، لأنك إن ابتعدت عنها هلكت[1].

❖ **إنها (نفس الإنسان) صورة الملك وصورة اللاهوت العظيمة، وجمال كل المخلوقات يأتي بعدها.**

انظر كم هو جميل النور الذي صار في اليوم الأول، لم تُصور فيه صورة اللاهوت العظمى.

انظر إلى الجَلَد، الخيمة المثبتة على كل الجهات، لم يكفِ ليصير صورة للملك بعلوه العظيم.

البحار المحبوسة وكل المسكونة مع جهاتها كانت أصغر من صورة الملك في حدودها.

ولما كانت الشمس والقمر بأشعتهما وإشراقاتهما جميلة، لم تُصور فيهما الأيقونة العظمى.

لا الفردوس ولا لثماره الروحية صار صورة للكائن العظيم يوم خلقه.

لم يصور صورته على مركبة السمائيين، ولا على الأجنحة، ولا على العجلات الناطقة.

---

[1] راجع المرجع السابق، ص ٧٥.

شبهه ليس مصورًا على الكاروبيم ولا على السيرافيم ولا في الجموع ولا في صفوف اللهيب.

لم يشأ أن يصور على لهيب آل جبرائيل، ولا على روح آل ميخائيل المملوء عجبًا.

ترك في الأعالي كل الأركان العالية، وجعل له نفس الإنسان شبهًا وصوّر عليها صورته[1].

القديس مار يعقوب السروجي

صورة الله وزنة ثمينة

يتطلع آباء الكنيسة الأولين إلى هذه العطية، كوزنة ثمينة يلزمنا ألا نستهين بها. حتمًا لقد وهبنا الله الإمكانية للحفاظ عليها خلال نعمته التي تسندنا، فنمارس وصيته الإلهية بروح التواضع مع الإيمان والاتكال على الله. أما وقد أفسدنا هذه العطية، فإنه لم يكن يليق بـــذاك الذي أحبنا أن يتركنا في فقداننا هذه العطية، فقد نزل إلينا وحقق الخلاص بتقديم ذاته ذبيحة عنا، ورد لنا الصورة. لاق بنا ألا نتهاون بعد بهذه الصورة الثمينة. هذا ما أكده السيد المسيح بقوله: "أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" (مت ٢٢: ٢١؛ مر ١٢: ١٧؛ لو ٢٠: ٢٥).

يقدّم لنا **العلاّمة أوريجينوس** تفسيرًا رمزيًا لكلمات السيِّد هذه، إذ يقـــول: [يحمـــل الإنسان صورتين؛ الأولى استلمها من الله عند الخلقة كما يقول سفر التكوين: "على صـــورة الله خلقه" (تك ١: ٢٧)، والأخرى صورة الإنسان الترابي (١ كو ١٥: ٤٩) التـــي أخـــذها بسبب عصيانه وخطيَّته عند طرده من الفردوس وقد أغراه "رئيس هذا العالم" (يو ١٢: ٣١). كما أن العُملة أو الفلس بها صورة لسلطان هذا العالم، هكذا من يتمّم أعمال رئيس الظلمـــة (أف ٦: ١٢) يحمل صورته. لذلك يأمر يسوع بإرجاع هذه الصورة ونزعها عنّا حتى نتقبّل الأصل الذي عليه خلقنا مشابهيّن لله. بهذا نرد ما لقيصر لقيصر وما لله لله... بنفس المعنـــى يقول بولس: "كما لبسنا صورة الترابي، سنلبس أيضًا صورة السماوي" (١ كـــو ١٥: ٤٩). فالقول "**أعطوا ما لقيصر لقيصر**" إنّما يعني: اتركوا صورة الترابي، اِقلوا عـــنكم الصـــورة الأرضيّة لتنعموا بصورة الإنسان السماوي، عندئذ تعطون ما لله لله[2].]

---

[1] الميمر ٣٠ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

[2] *In Luc. hom 39:5.*

ويقول **العلامة ترتليان:** [لترجع صورة قيصر التي على العملة لقيصر، وصورة الله التي على الإنسان (تك ١: ٢٦، ٢٧؛ ٩: ٦؛ ١ كو ١١: ٧) ترجع لله. هكذا بالحق يُرد المال لقيصر وأما نفوسكم فللَّه[1].]

ويقول **القديس أمبروسيوس:** [طلب دينارًا وسألهم عن الصورة، لأن صورة الله تختلف عن صورة العالم. هكذا ينذرنا الرسول: "كما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضًا صورة السماوي" (١ كو ١٥: ٤٩)... لا تجد صورة قيصر في بطرس القائل ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك (مر ١٠: ٢٨)، ولا تجدها عند يعقوب ولا يوحنا لأنهما ابنا الرعد، لكنك تجدها في البحر. إن كان بطرس لا يحمل صورة قيصر، فلماذا دفع الجزية؟ إنه لم يدفعها مما له (بل من البحر) حيث أرجع للعالم ما كان للعالم. وأنت أيضًا إن أردت أن لا يكون لقيصر شيء عليك، فلا تقتني ما للعالم بل اقتن البركات... إن أردت ألا تكون مدينًا للملك الأرضي اترك كل أموالك واتبع المسيح[2].]

❖ كل واحدٍ منا نفسه هي وزنته، لأنها تحمل فيها صورة اللاهوت العظمى.

لا تطمرها في أهواء الشهوات السمجة، فتفسد الصورة العظمى الموجودة على النفس.

ذاك الديان يطالب بصورته منك، فأخرج وأعطه، لئلا تُشوه صورته من قبلك.

لو لم تكسب ربحًا مثل الوكيل، فأعِد إليه الشيء الذي أعطاك ولا توسخه.

كما أن صورة الملك هي مطبوعة جيدًا على الدينار، النفس مطبوعة بصورة اللاهوت العظمى.

ولو فسدت الصورة البهية الموجودة على النفس، ستُرذل من قِبَل الله ولن تقبل.

الرب الذي صوّر فينا صورته العظمى، ليدافع حنانه العظيم عنا في اليوم الأخير، وينجّنا[3].

❖ مَن أنزلكِ من الروحانية إلى دناءة العبيد وحقارتهم؟...

---

[1] *In Idolat. 15.*

[2] *In Luc 20: 21-26.*

[3] الميمر ٨٣ التطويبات التي تكلم عنها ربنا في الإنجيل (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني). ملاطيوس برنابا، قصيدة لمار يعقوب السروجي في التطويبات الإنجيلية، في المجلة البطريركية ٧٤-٤٨ (١٩٨٥) ٣٨٨-٣٩٥

أنتِ بنت الأحرار، أنتِ بنت الملك، أنتِ بنت النور، لماذا أنتِ لابسة لون الليل وأنتِ مظلمة؟[1]

القديس مار يعقوب السروجي

الجسد وصورة الله

يرى **القديس مار يعقوب السروجي** أن صورة الله تتجلى في النفس البشرية. كما يماثل بين صورة الله والعقل البشري. ويشدد كغيره من بعض الآباء على مشاركة الجسد في صورة الله، لتأكيد قيامة الجسد، ومقاومة الظاهريَّين الذين يظنون أن الكلمة لم يأخذ جسدًا حقيقيًا.

الحب الإلهي وعطية العقل والتمييز

سبق لنا الحديث عن "العقل البشري والإيمان المسيحي[2]، حيث رأينا أن الله وهبنا العقل البشري، وقدَّم له عطية التمييز، ليعيش كائنًا عاقلاً يتفهم الأمور المحيطة به، بل ويبحث عن معرفة الله. يريدنا الله - محب البشر - أن نحمل روح الفهم والتمييز حتى في عبادتنا له. كما يقول **العلامة أوريجينوس:** [كما أن العين بطبيعتها تطلب النور والبصر، والجسد برغباته الطبيعية يطلب الطعام والشراب، هكذا العقل له رغبته الطبيعية أن يعرف حق الله، ويبحث في علل الأشياء؛ هذه الرغبة التي هي من عند الله[3].]

- ❖ من يأتي إلى الكنيسة، لا يأتي بدون تمييز مثل الحيوانات التي لا فهم لها. لا يزور أحد عيادة الطبيب كنوعٍ من العادة، ما لم يجبره المرض لزيارته طلبًا للشفاء[4].

القديس مار يعقوب السروجي

في إبداع يحدثنا القديس مار يعقوب السروجي عن سمو العقل في حياة الإنسان، فيشبهه وهو في رأس الإنسان أي في العلو بالله الساكن في الأعالي، أي في السماوات.

---

[1] الميمر ٣٠ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

[2] المؤلف: الخط الاجتماعي عند آباء الكنيسة الأولى، ٢٠٠٥، ص١٣ الخ.

[3] *De Principiis 2: 2: 4.*

[4] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٢٢.

❖ **أتقن (الله) المخ بيتًا للعقل، ليجلس هناك في الطابق العلوي مثل الله**[1].

القديس مار يعقوب السروجي

مادام للعقل دوره القيادي مع الإرادة البشرية في حياة الإنسان لهذا يحذرنا القديس مار يعقوب السروجي من التهاون في تقديسه، والانحراف نحو إتباع الشهوات الجسدية التي تظلم العقل، وتنحط بالنفس لتصير في عبودية للجسد، حتى تبدو كأنها جسدية.

❖ يظلم العقل بالشهوات لئلاَّ يفهم... فمن أكثر من طعامه، **أنزل نفسه لتصير جسدًا**[2].

القديس مار يعقوب السروجي

حق الحوار بين الصورة والأصل

حفظ الصورة يهب النفس التمتع بدالة الحديث مع الله والدخول معه في عهد.

لا نندهش إن كنا نجد الكتاب المقدس بعهديه يدفعنا بكل وسيلة للالتصاق بالله، والتجاوب مع محبته لنا. تارة يُشبِّه نفسه بالأم التي لا تنسى رضيعها، وأخرى بالأب الذي يود أن يُقدِّم ما هو لبنيان ابنه، والحبيب الذي يكشف عن إرادته لمحبوبه الخ. إنه يتنازل ليتحدث معنا بلغتنا البشرية، وأخيرًا أرسل ابنه الوحيد إلى العالم ليُقدِّم ذاته فدية عنا. كل هذا لكي يرد صورته إلينا. هذا ما عبَّر عنه القديس مار يعقوب السروجي، وهو بهذا يرفعنا كما من التراب إلى السماء، لنحيا فرحين متهللين، ليس من قوة تقدر أن تكتم هتافنا الداخلي.

❖ رسم (الله) عليه صورته، وجعل عليه شبهه، وربط محبته بصورته، وقوَّى جبلته برحمته، وأقام عهدًا مع شَبهه، وجعل هذا سيدًا للخليقة. ومدَّ له طريقًا إليه منذ ذلك الحين، **وجعله أليفًا، بحيث كلما تكلم معه، يتكلم مع صورته**، وكلما ظهر له يكون قد ظهر على شبهه، ولأجل هذا السبب **يتكلم مع جنسنا بلغتنا**[3].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] راجع المرجع السابق، ص ٢٦.

[2] راجع المرجع السابق، ص ٦٧.

[3] راجع المرجع السابق، ص ١٠٩.

إبليس يحاول إزالة صورة الله

إن كان الله لا يكف عن العمل لنسترد صورته فينا، ونعيش بدالة كما في أحضـــانه الإلهية، فإن عدو الخير لا يتوقف عن بذل كل الجهدٍ، واستخدام كل وسيلة وحيلة لإفساد هذه الصورة فينا.

❖ **تقول البهية:** تلك الحيَّة التي سخرت بي بين الأشجار، عرتني وأذلتني، وها هي تلدغني.

مكرت بي هناك، وسرقت ثيابي التي كنت متشحة بها، وهنا تضلني بمحبة العالم.

كل يوم تلقي أمامي ثمرة من شجرة المعرفة لآكل، وأموت بشهواتها.

جعلوني هناك ناطورة الكرم بين الأشجار، ولم أحافظ على يدي من تلك الثمرة التي قتلتني.

وضعوني مثل ناطورة عند شجرة الحياة، وقطفت الثمرة من شجرة المعرفة.

بمكرها البغيض جرتني الحيَّة، وأنزلتني من الأعالي العظيمة، وهأنذا ساقطة في العالم الشرير[1].

القديس مار يعقوب السروجي

تقدير النفس الحاملة صورة الله

إذ وهبنا الله نفوسًا على صورته، صار كنزنا في داخلنا، فلا نطلب شيئًا يملأ فراغًا ما، لأن الصورة ثمينة ومشبعة.

ليس من وجه للمقارنة بين النفس ذاتها ومقتنياتها. فهي تعتز بما نالته من خالقهـــا، وتقدم له تسابيح شكر دائمة على هذه العطية. وكما يقول **القديس باسيليوس الكبير:** [تنبهك الأسفار المقدسة إلى الاهتمام كثيرًا بنفسك. فلا تهتم بالجسد، ولا بما هو مـــرتبط بالجســـد، كالصحة والجمال، واللذة والعمر المديد. كذلك لا تعر كبير اهتمام للغنى والمجد والسلطان، وكل ما هو مرتبط بالحياة الأرضية. ولكن اهتم بنفسك فوق كل شيءٍ. فهذه هي الكنز الثمين

---

[1] الميمر ٣٠ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

لك. زينها بالفضائل، نقها من الخطيئة، وجمّلها بزينة الفضيلة التي هي أجمل زينة. تأمـــل جيدا بهذه الفكرة: إن الجسد يزول ويفنى، أما النفس فخالدة[1].]

❖ لك نفس هي أعظم من المقتنيات، فإن تحب أحببها بكونها هي الأفضل.

لا تحب المقتنَى الصغير كالأبله، وتبغض ذلك المقتنَى العظيم، وتتركه كأنه لا شيء.

أحبب الذهب كالذهب حسب معياره، والفضة أيضًا هي معروفة كالفضة.

ولو وجدتَ الأموال أحببها حسب أثمانها، وأحبب كل مقتنَى كما هو.

ولاحظ ما هو ثمن النفس، وأحسبها عظيمة، وأحببها بحسب ثمنها.

مَن يعرف كيف أن بنت النيِّرات هي أفضل؟ ومَن يمسكها؟ ومَن يفحصها؟ ومَن يزنها؟

مَن يعرف ثمن النفس ليأتِ وليتكلم، ليحبها أصحابها حسب ثمنها[2].

القديس مار يعقوب السروجي

النفس أفضل من كل العالم

❖ **وضع الخالق كل العالم في كفّ واحد، والنفس في كفٍ واحدٍ، وكف النفس أرجح من المخلوقات.**

هو يعرف كم أن **اللؤلؤة** هي أفضل، ولا أحد يقدر أن يصف أثمانها سواه.

وضعها إزاء كل العالم، ووضع لها الإثمان لأنها أفضل من كل العالم ولا يشبهها.

النفس ليست أفضل من كل العالم فقط، لكن **العالم هو لا شيء والنفس هي شيء.**

العالم سيسقط والنفس لن تنحل معه، **العالم عشب والنفس هي صورة اللاهوت.**

كل العالم يزول كظل المغيب، والنفس لا تزول لأنها صورة الكائن العظيم.

إن اقتنى الإنسان العالم كله وخسر نفسه، ماذا يملك لو صارت نفسه ليست ملكه؟[3]

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] راجع الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣١٥. عظة ٣: ٣.

[2] الميمر ٣٠ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

[3] الميمر ٣٠ (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني).

لا يقدر أحد أن يصف ثمن النفس سوى الخالق

خالق الإنسان الذي وهبنا أن نحمل صورته، هو وحده يستطيع أن يُقيم النفس. لذا عندما سقطت النفس في الفساد قدَّم حياته مبذولة ليهبها عدم الفساد. إنه يدعونا أن نتخلى عن كل شيءٍ من أجلها.

يؤكد السيد المسيح لنا تقديره للإنسان: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟" (مر ٨: ٣٦) أراد لنا أن نهتم بأنفسنا لا بما لنا. هذا ما يقدمه لنا **القديس باسيليوس الكبير** وغيره من الآباء عن خبرةٍ عملية عاشوها.

["تأمَّل ذاتك" (راجع تث ١٥: ٩)، أعني **لاحظ لا ما هو بين يديك، أو حولك، لكن لاحظ ذاتك فقط.** لأنَّنا نحن شيء، وما هو تحت حوزتنا أو يحيط بنا شيء آخر، فنحن على مثال خالقنا فَطَرَنا من نفس وروح. ما نملكه هو الجسد وحواسه، وما يحيط بنا، فهي الأموال والأشغال وسائر حاجيات الحياة. فما معنى هذه الآية إذًا؟ معناها أن تستخف بالجسد ولا تبالي به، ولا تجتهد في طلب ما يطيب له، من صحَّة كان أم من جمال أم طول عمر. ولا تعلِّله بملذَّات الشهوات. ولا تغريك النضرة والمجد والعظمة والجبروت. ولا تأبه كثيرًا لأمور جُعلت لخدمة حياة زائلة، فتستعظم شأنها، ولا تهمل انصبابك على نفسك التي تخصُّك دون سواها. لكن "راقب ذاتك" لا غير. زيِّنها واعتن بها، وامحِ عنك بدأبك، كل شرّ لطخها الإثم به، وكل وصمة لوَّثتها بها الخطيئة. لا بل حاول أن توشِّيها لتتلألأ بهاء، وتتدفَّق بنور الفضيلة وسناها[1].]

❖ أعطاها ابن الله صورته عندما خلقها، ولبس صورتها من البطن عندما خلصها.

يقول لنا: ما هو ثمنها، وكم هي حسنة، **لا يعرف أحد ما هي النفس سواه.**

كان يقول عندما كان يُعلم في الجماعات: كيف أن نفس الإنسان أفضل من المقتنيات![2]

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] راجع الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٤٨-٢٤٩. تعريب الدكتور نجيب حجّار.

[2] الميمر ٣٠ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

صورة الله الدائمة النمو أو التقلص

إن كان الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله، فإنه لم يخلقه كائنًا جامدًا إستاتيكيًا لا حركة فيه، وإنما أقامه يحمل حركة ديناميكية دائمة، فيغرف من انعكاسات بهاء الله عليه. ينمو في بهائه على الدوام، وتبقى أيقونة الله تزداد بهاءً بغير انقطاع.

حينما قالت القديسة مريم: "تُعظِّم نفسي الرب" (لو ١: ٤٦)، لا يعني هذا أنها تضيف إلى الله عظمة جديدة، إنما تغرف من عظمة الله، فتسمو نفسها، وتنطلق من مجدٍ إلى مجدٍ، ففي تعظيمها لله، تتمتع هي بالعظمة. هذا ما نسأله من الله كلما صلينا الصلاة الربانية فعندما نقول: "ليتقدس اسمك"، فإن اسم الله القدوس لا يحتاج إلى تقديس، إنما يتمتع المُصلي بقداسة اسم الله، فتتجلَّى قداسته في حياة المتعبِّد لله.

يعلق **العلامة أوريجينوس** على كلمات القديسة مريم: "تُعظم نفسي الرب" (لو ١: ٤٦)، قائلاً إن الله غير متغير، لكن صورته فينا تتعاظم أو تتناقص. [كما أن صورة الرب تتعظم وتتألق بأعمالي وأفكاري وكلماتي، وبهذا يتمجد الله، هكذا عندما نخطئ تصغر صورته فينا وتبهت.]

كما يمكن للمؤمن أن تنمو صورة الله فيه على الدوام، هكذا يُمكن من الجانب الآخر أن تضعف، حين يُفسد الإنسان صورة الله فيه باعتزاله له، وعدم تجاوبه مع روحه القدوس. وكما يُمكن أن تتشوَّه صورة الله في الإنسان، فإنه يُمكن للنفس أن تستردها.

❖ نفس الإنسان هي صورة اللاهوت العظمى، يا ابن الله بك تطهر وتقتني جمالها.

خلقتها أسمى من المخلوقات الجميلة، لقد سقطت بالإثم. أقمها أنت، أيها الوارث الآب الصالح.

خُطبت لك في مياه المعمودية؛ احفظها في الاتحاد معك من الغريب الذي يدنسها.

العالم الشرير وشهواته المليئة أضرارًا أفسدوا النفس. أنت يا مُتقن الكل، اِحفظ لها جمالها.

تجلس باسمك صورة الملك المخطوبة لك. اِحفظها باسمك لئلاَّ يسخر منها المارد.

المسكونة مليئة عراقيل وحفرًا وفخاخًا. ربنا، اِسحب النفس وراءك لتكون معك.

سقطتْ، وبما أنه لا يسهل عليها القيام، أنهضها أنت (أيها) الجبار، وخذ بيد الضعيفة المخطوبة لك.

عثرت وسقطت، مدّ لها اليد بالتوبة، **وخذ النعجة على كتفيك: لقد عذَّبتها الذئاب.**

ربي، محبوبة هي نفس الإنسان إليك، وهي تفتخر بك، وعندما تسقط تتكل عليك لتقيمها.

إنها غنمتك، ولن تؤخذ منك لأنك جبار، وهي مختلطة معك، وبك تنجو من السالب.

صليبك خلصها من السجود للأصنام الميتة، وبه تنجو من زلات الأهواء الشريرة.

إنها ساقطة في الإثم، وهي متعلقة برجاء جبروتك وتنتظرك، فهلم إلى عونها يا ابن الله[1].

القديس مار يعقوب السروجي

❖ أنا خليقتك، أعطني المراحم من نعمتك، لأرى جمال النفس من موهبتك.

ظلمة الشهوات تقف أمام النفس، ولا تسمح لها أن ترى جمالها العظيم.

أمرك إشارة وأتى بالنور من اللاشيء، وبه رأت الخليقة كل الجمال الذي تملكه.

بدون المعرفة تكون النفس عمياء، ولا يوجد فيها نور، وتنتظر مجيء كلمتك حتى ترى نورها.

هبها نور معرفتك التي هي كلها نور، لتستنير بها كل حواسها لترى ذاتها.

بدون النور لا تُرى الخليقة التي صارت، فلو ابتعد عنها النور لبست الظلمة.

وبدون نور معرفة الإيمان، لا ترى النفسُ جمالَ بيت الله.

الرؤيا الجسدية تتلذذ جسديًا، عندما تتأمل وتشاهد جمال القدرة الخالقة.

هذا هو ذاك النعيم الجسدي الذي أعطاه ربنا لنا لنُسعد به عيني الجسد.

أعطى السعادة الجسدية والروحية حتى تسعد النفسُ جسديًا وروحيًا[2].

---

[1] الميمر ٣٠ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

[2] الميمر ٨٣ التطويبات التي تكلم عنها ربنا في الإنجيل (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني). ملاطيوس برنابا، قصيدة لمار يعقوب السروجي في التطويبات الإنجيلية، في المجلة البطريركية ٧٤-٤٨ (١٩٨٥) ٣٨٨-٣٩٥

٣. الإنسان ملك (أو ملكة) أُعد له العالم قصرًا ملكيًا

ملك المحبوب لدى الله في قصر

في حديث **القديس غريغوريوس النيسي** عن خلقة الإنسان، يرى أن الله قد خلق العالم بكل إبداعه كقصرٍ عظيمٍ أعده لآدم وحواء كملكٍ وملكةٍ. وأن الله قدم للإنسان كل إمكانية السعادة والسلطة على الخليقة التي أوجدها من أجله.

في مقاله "مقارنة بين الملك والراهب"[1] *Comparatio regis et monachi* يكشف **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن منهجه المسيحي ألا وهو إدراك المؤمن، راهبًا كان أو كاهنًا أو من الشعب أنه يتطلع إلى نعمة الله العاملة فيه، فتجعله ملكًا صاحب سلطان أعظم وأقوى من ملوك كثيرين.

يحكم الملك مدنًا وبلادًا وشعوبًا وجيوشًا. أما الراهب (أو المؤمن الحقيقي)، فيسيطر على الغضب والحسد والطمع والشهوات الدنيئة وكل جمهرة الأهواء. إنه بالحق يستحق بالأكثر أن يُدعى ملكًا أكثر من الذي يجلس في الأرجوان ويكلل بالعرش الذهبي، فإنه بالحق متحرر داخليًا. من جانب آخر من يحكم البشر بينما يحكمه الغضب والطمع والشهوات الدنيئة، يقوم بدورٍ سخيفٍ، ونادرًا ما يستطيع أن يكون حاكمًا صالحًا.

يحارب الراهب (أو المؤمن الحقيقي) الشياطين ويغلبهم بالعون الإلهي، ويتوج بواسطة المسيح. بينما يحارب الملك البرابرة، فقط بهدف كسب أراضٍ وكنوزٍ أو لإشباع مطامعه أو عطشه نحو السلطة.

عندما يأتي وقت الوفاة، فالموت مخيف للملك، أما الراهب (أو المؤمن الحقيقي) فلا يقلق منه نهائيًا، لأنه يجحد الممالك من مدة طويلة، والملذات والحياة المترفة. إن عانى أحدهما موتًا عنيفًا، يموت الراهب كشهيدٍ ويذهب إلى السماء، وأما الملك فيستسلم لسيف منافسه بالحقيقة. يلزمه أن يقضي حياته كلها في اضطرابٍ وقلقٍ، ويحمي نفسه بواسطة حارس. والراهب على العكس، يحمي مدنًا بصلواته كما بسورٍ، ولا يحتاج أن يخشى شيئًا ما على نفسه. عندما يأتي وقت موته كثيرون يصلون لكي يقتدي به آخرون على مثاله.

---

[1] *PG 47: 387-392. Bour,vol.1, Part1, ch. 12.*

بعد الموت طريقاهما منفصلان أيضًا. الراهب الصالح يدخل إلى مجد الرب وبهائه، هذا الذي كان قائدًا ومعلمًا له في طريق الفضيلة النافع. الملك، إن كان صالحًا ينال كرامة أقل درجة وبركة، فإن الملك الصالح لا يكون بأية وسيلة مثل الراهب الذي يعيش لخدمة الله فوق كل شيء. أما إذا كان الملك شريرًا، وصنع أعمالاً شريرة، فمن يقدر أن ينطق بعذابات الجحيم التي تسقط عليه؟

❖ كانت صورة اللاهوت مرسومة على آدم. وحالما رآه العالم خضع له بأسره. أطلق عليه الأسماء، وبأسماء (الخليقة) أخضعها لتكون ملكه، لأن ربه أعطاها إياه ليقتنيها. فكان واجبًا عليه أن يلقي يده على كل ما صنعه الرب ربه، لأنه صار صورة الله[1].

القديس مار يعقوب السروجي

يرى **القديس مار يعقوب السروجي** أن الله خلق الأرض وكل ما عليها وما تحتها، وأوْجد الكواكب، كإعداد لقيام وكيله أو سفيره على الأرض، الإنسان! إنه كمن يُعد قصرًا ملوكيًا لأجل الملك!

الإنسان يسوس العالم

يقول الحكيم: "**خلق الله الإنسان ليَسوس العالم بالقداسة والبـرّ**" (حـك ٩: ١-٣). هكذا يتطلع الله إلى الإنسان كوكيلٍ له، يَسوس العالم، أي يدبر كل الأمور بالقداسة والبرّ. يود الله أن يكون كل إنسانٍ - أياً كان عمره أو قدراته أو مركزه - قائدًا حيًا، يتسع قلبه لمحبة البشرية، بل محبة كل الخليقة الأرضية. كقائدٍ يحافظ على سلامة إخوته والحيوانات والطيور، بل حتى على الجماد. إنه قائد، صاحب قلب متسع كسيده، يحب الكل، ويعمل لأجل الكل بفرحٍ وبهجة قلبٍ.

❖ بسط السماء، ووضع فيها جميع الأنوار: الشمس والقمر وجميع الكواكب، تطوف فيها.

لم تسأل السماء، بل هو زيَّنها بمناظر حسنة، تُبهر عيون الناظرين.

ليس للشمس فم لتطلب منه نورًا عظيمًا يضيء على الخليقة جميعها.

زيَّن جميع أجناس الطيور والبهائم بألوان شهيَّة وبهية منذ البدء.

---

[1] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ١٠٤.

زيَّن الخليقة، وفى كمالها لم تتغير زينتها.

أتقن بيت الخليقة جميعها كما قيل، وزيَّنها بصورٍ جميلة.

قام البيت من بناء مملوء عجبًا.

ملأه جميعه حُسنًا، بزينات لا يُنطق بها.

ولما أتقن البيت بجميع ما فيه، طلب الصانع أن يقيم فيه من هو ممتلئ جمالاً.

أخذ ترابًا وجبل آدم، ونفخ في وجهه نسمة حياة محيية.

أتقن نفسه، فصار مثالاً مملوء عجبًا!

صنعه كشبهه، وملأه مجدًا وبهاءً!

أشعل ضوءه، وانطفأ أمامه نور الشمس لما فيه من مجدٍ وهبه إياه سيده عندما خلقه.

القديس مار يعقوب السروجي

---

٤. الإنسان في عُرسٍ دائمٍ مُتشح بحلة نورانية

عروسان في جنة عدن

٤

"وقال الرب الإله: ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينًا نظيره" (تك ٢: ١٨).

إن كان خلق العالم ككل قد احتاج إلى ملايين السنوات، لكن الوحي سجَّله في أصحاح واحد باختصارٍ شديد لكي يبقى الكتاب المقدس كله يعلن اهتمام الله بالإنسان على وجه الخصوص، مركز العالم في عيني الله. اهتم بأموره المادية والنفسية كما الروحية... والآن إذ يراه وحيدًا في الجنة أراد أن يصنع له معينًا نظيره. جاء تعبير: "**معينًا نظيره**" يكشف عن مفهوم الحياة الزوجية، علاقة آدم بحواء، أو الرجل بالمرأة. فالزوجة معينة لرجلها، كما أن الرجل معين لزوجته، وهي نظيره لا تتشامخ عليه، ولا هي أقل منه! كأن الحياة الزوجية تقوم على أساس الوحدة الحقيقية التي تعين الاثنين خلال الاحترام المتبادل.

إذ خلق الله آدم وحواء لا ليموتا، بل يعيشا معًا بنعمته خالديْن ماداما في شركة معه، وبالتالي كانا يعيشان كعروسيْن مبتهجيْن على الدوام، لا يلحق بهما حزن أو ضيق أو تعب أو مرض. كل ما في داخلهما وما حولهما يبث فيهما روح الفرح، ويدفعهما لتمجيد الله بلا انقطاع وتسبيح مستمر. في اختصار كانا يمارسان حياتهما في عرسٍ مبهجٍ لا ينقطع.

جاءت قصة خلق حواء تحمل رمزًا لخلق الكنيسة عروس المسيح، كلمة الله المتجسد، التي من أجلها أخلى العريس ذاته ليلتصق بها، وينطلق بها إلى سمواته. وقد جاءت كتابات الكنيسة الأولي تحمل فيضًا من الحديث عن خلق حواء وعلاقتها بالكنيسة عروس المسيح؛ نقتطف منها القليل من كلمات **القديس أغسطينوس** في هذا الشأن: [(في حديثه عن سرّ الوحدة بين السيد المسيح وكنيسته كعريس وعروسه) يقول الرسول عنه: "هذا السر عظيم، ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة" (أف ٥: ٣٢)...

نحن معه في السماء بالرجاء، وهو معنا على الأرض بالحب[1].] كما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:**

[إذ أقام المسيح معنا عقدًا عيّن لي مهرًا، لا من المال بل بالدم، هذا المهر هو عربون الأمور الصالحة: "ما لم ترَ عين، ولم تسمع أُذن، ولم يخطُر على بال إنسان" (١كو ٢: ٩). عين لي الأمور التالية مهرًا: الخلود، تسبيح الملائكة، الخلاص من الموت، التحرر من الخطية، ميراث الملكوت العظيم، البرّ، التقديس، الخلاص من الشرور الحاضرة، اكتشاف البركات المقبلة.

عظيم هو مهري...

جاء وأخذني، وعين لي المهر، قائلاً لي: أعطيك غناي.

هل فقدت الفردوس؟ أرده لك...

ومع ذلك فهو لم يعطني المهر كله هنا؛ لماذا؟

لكي أعطيه لك عندما تدخل الوضع الملوكي.

هل أنت أتيت إليَّ؟ لا، بل أنا الذي جئت إليك... لا لكي تمكث في موضعك، إنما آخذك معي، وأرجع بك. فلا تطلب مني المهر وأنت هنا في هذه الحياة، بل كن مملوءًا رجاءً وإيمانًا[2].]

العرس مهيأ والعروسان غير موجودَين

يصور القديس مار يعقوب السروجي الأرض كلها أشبه ببيت زوجية، فقد أعدّ كل شيءٍ للعرس من نور ومياه وأرض ونباتات وطيور وحيوانات مع كواكب... والكل ينتظر من هو هذا العريس الذي تُعَدّ له كل هذه المخلوقات؟ إنه الإنسان!

❖ **سرير العروسيْن مفروش وعالٍ، وهما ليسا موجودين، اسمحي لهما أن يدخلا ليتسلما هداياهما.**

---

[1] *On Ps. 55.*

[2] الكنيسة تحبك ص ٦١-٦٦.

الزفاف الكبير، مهيأ كله وممتلئ جمالاً، وينقص العـــريس فـــي الوليمـــة التـــي أقيمت له[1].

القديس مار يعقوب السروجي

آدم وحواء متشحان بحلة النور يدخلان إلى الفردوس

يا لبهجة الخليقة الأرضية، بل والعالم كله حين خُلِقَ آدم ثم حواء، وكأن الاثنين قد صارا في جنة عدن يرتديان ثياب العرس التي تحمل بهاءً نورانيًا فائقًا!

❖ وقف العروسان بحلة النور التي كانا متشحين بها، وكان العالم بأسره مبتهجًا بهما بهداياه.

ضحك النهار إزاء العريس، وأهداه كل ضوئه لينعم به...

فتح الفردوس أبوابه العالية ليدخل العروسان ويفرحا هناك في خدر التطويبات الذي كان مُعدًا[2].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] الميمر ٧١.

[2] الميمر ٧١.

٥. الإنسان عالم مصغر بديع

يتطلع القديس إلى الإنسان بكونه عالمًا مصغرًا، إنه قلب الكون ونهاية تطوره.

كما سبق فقلنا **يرى القديس مار يعقوب السروجي الإنسان يجمع كل الجمالات،** فمع ما بلغه العالم من الجمال الفائق، لكن الله خصَّ الإنسان العظيم ليحمل فيه صورته. خلقه الله ليكون بحكمته سيدًا على كل شيءٍ، لكنه خلقه من العدم، فهو ككل الخليقة ليس أزليًا.

لم يشاهد الإنسان عملية الخلق، إذ هو آخر الخليقة.

يرى القديس مار يعقوب السروجي أن الخليقة في نهاية اليوم الخامس كانت تترقب مجيء سيد البيت الذي أقامه الله، وإذ خلق الله آدم، سجدت له كل الكائنات، لأنها رأت فيه صورة الله.

خلقه الله ليحيا خالدًا، بينما أوجد الخليقة الأرضية لتنحل وتزول. ميَّزة عن بقية المخلوقات، إذ لم يقف الأمر عند خلقته، بل تدخل شخصيًا في خلقه، فقد خلقه بيده.

يرى القديس أن الله نزل ليخلق الإنسان، وبحبه العظيم له نزل حين خلصه.

العقل مثال الأزلي العظيم

في عبارة رائعة يحدثنا **العلامة أوريجينوس** عن دور العقل في حياة المؤمن.

[كما أن العين بطبيعتها تطلب النور والبصر، والجسد برغباته الطبيعية يطلب الطعام والشراب، **هكذا العقل له رغبته الطبيعية أن يعرف حق الله، ويبحث في علل الأشياء؛ هذه الرغبة التي هي من عند الله**[1].]

إن كان القديس مار يعقوب السروجي يرى في الإنسان عالمًا صغيرًا هو أعجوبة أدهشت السمائيين، فتهللوا بخلقته كما أيضًا بخلاصه، فإنه إذ يتحدث عن العقل البشري يُبدع في مدحه. حقًا كل الحيوانات غالبًا ما لها "المخ" في رأسها، لكنه ليس من وجه للمقارنة بين مخ الإنسان والمخ في بقية حيوانات البرية والبحرية والطائرة. فالإنسان يقف باستقامة، ويُوجد مخه في رأسه في أعلى موقع في جسم الإنسان، لكن العقل البشري لا يُحَد بأعضاء

---

[1] *De Principiis 2: 2: 4.*

معينة، بل ولا يحده جسم الإنسان كله، فيمكن للعقل أن يرتفع إلى الأعالي، ويسْبَحَ في أعماق البحار، ويطير كما مع طيور السماء في الجو. يرى القديس مار يعقوب **في العقل البشري صورة لله السماوي الذي لا تحده السماوات والأرض وكل المسكونة.**

❖ **الإنسان هو العالم الصغير المدهش، فيه ينظر الإنسان العالم وأعماله.**

رأسه هو العلو، وعقبه الأعماق التي تحت الأرض، وكل الخليقة مثل الأعضاء المرتبطة بنظامٍ فيه.

وفيه العقل الذي هو مثال الأزلي العظيم، فالعقل فيه كله، وخارجًا عنه، ولا يحده الجسم.

لا يحد الجسم العقل، وهو ساكن فيه، كما أن الله لا يُحد قط.

نقول الآن إن العقل يسكن في المخ.

ولكن من هو هذا الذي يجول في أماكن (خارج المخ)؟

هكذا أيضًا الله في السماء جالس في المجدٍ، ويخرج بقوته خارجًا عن العوالم.

هو ضابط الكل، لا تحده السماء العالية التي يحل فيها.

هكذا العقل لا يحده الجسم الساكن فيه.

أيها العقل ما أجسرك! فإنك تمضي إلى أقصى الأرض، وتنظر إلى ما وراء العالم!

من هو الذي يسندك، لتصعد الآن إلى بيت العلويين، وتنظر بالدهش جموع السمائيين؟

فُوق أعلى من العلو، وتحت الأعماق، من يسندك إلاَّ الشبه الإلهي الذي لك...

العقل العظيم لا يتنازل ليثبت في التراب.

لقد تركني الآن، وقام بين الملائكة في الأماكن المخوفة التي بالكمال لا تتغير.

لقد ضغطته الجموع، وبلغت به إلى المركبة...

هوذا العقل ينسحق بالدهش مثل حزقيال، لينظر هو أيضًا الرؤيا المهوبة، كما نظر ذاك الكاروبيم مرتبطين بنار اللهيب الإلهي.

القديس مار يعقوب السروجي

عظمة جسم آدم

إن كانت **النفس البشرية** أثمن من العالم كله، تحمل جَمالاً بارعًا كصورة لله، **والعقل** له جماله الفائق، يحتل قمة جسم الإنسان، لكن لا يحده الجسم كله، فماذا عن الجسم نفسه؟

تحدث عن إبداع الله في خلقة الجسد بأعضائه المتنوعة، التي تتكامل معًا.

لقد اهتم **بقلب الإنسان** لا كعضو يمد الجسم بالدم النقي فحسب، وإنما كخزانة عظيمة يضم كل الكنوز (أفكار الإنسان). هكذا يليق بالإنسان ألا يستتفه نفسه، بل يتطلع إلى الخزانة العظيمة التي في داخله تحمل كنوز الأفكار العظيمة.

أما **الفم** مع اللسان والحنجرة والشفتين فخلقهم الله ليجعل من الإنسان آلة موسيقية تُعَبِّر عما في داخله من شكر وتسبيح وحمد لله، كما سنرى في حديثنا عن الإنسان كائن مُسَبِّح: موسيقار أم آلة موسيقية؟

❖ كان آدم مجيدًا أكثر من التاج بجماله العظيم، **ولم يوجد في المخلوقات جمال آخر ندّه.**

وضع صائغه **عيني النور** على قمة التاج، ليتطلع إلى المخلوقات المحيطة به كما من العلو.

وأتقن له في الأسفل **رِجلين** للركض كالمركبة، وبواسطتهما يمشي حيثما شاء أن يسير.

وأتقن في جانبيه **يدَين** وفيهما **الأصابع العشر**، وبها يستولي على البحر واليابسة وكل العالم.

وأتقن **المخ** بيت العقل ليكون هناك، ويسكن في الطابق العلوي مثل الإله.

وصنع له **حَنَكاً** ليفحص الأطعمة، ووضع فيه طعمًا ليميز الحلو عن المر.

وفتح له **الشم** ليكون سبيلاً للروائح، وبه يدرك (مميزًا) الرائحة النتنة عن اللذيذة.

ونقب **السمع**، وأحاطه بنمط الحلزون، لتدور فيها الأصوات وتدخل بلذة.

في صدره القلب المجتمعة فيه كل الأفكار، ليوزع كل الكنوز كما من خزينةٍ عظمى.

في فمه الكلمة، وفي شفتيه تمييز الأصوات، والجبين للرمز، وزين البؤبؤين **بالجفنين.**

وضع فيه عضو السمّ والغضب كالنار ليلتهب بها ضد الإثم عندما يُقترف.

وضع فيه (عضو) آخر أن يكون قابلاً للحزن ويندم على الشرور عندما تُصنع.

أعطى للآخر أن يستعمل البشاشة ليفرح ويبتهج وجهه عندما يُفعل الصلاح.

حكيم العوالم ركّب وصفّ وظيفة مختلفة في كل عضو في صورة الجمال عندما أتقنها.

صنع الخالق من اللاشيء شيئًا عظيمًا، ليصير سيدًا لكل شيء بالحكمة[1].

❖ **عندما خلق الخالق الفم، وضع فيه الصوت والكلمة ليتحرك للتسبيح.**

هكذا يجب على كل من شعر بوجود الخالق أن يسبّح الرب الذي خلقه.

ليس فم الإنسان مسلطًا ليستخدم الأخبار التافهة والكلمات غير اللائقة.

لما خلق الخالق الفم أتقنه لتسبيحه، وليس ليتلفظ بأمورٍ باطلةٍ[2].

القديس مار يعقوب السروجي

الإنسان وعطية الجسد بحواسه وعواطفه

الجسد هو عطية إلهية، نلتزم أن نهتم به ونقدم له احتياجاته، لكي يتعاون مع النفس والفكر وكل الطاقات، فيعيش الإنسان في تناغمٍ بلا نزاعات داخلية. فالإنسان السوي يعرف كيف يتمتع بتوازنٍ داخلي. خلق الله الجسد من التراب، لا لينحدر بالنفس إلى أسفل، وإنما لكي تقوده النفس في مخافة الرب ومحبته، فيجاهدا معًا، ويكلّلا معًا. يرى بعض الآباء أن نصرة الإنسان هي موضع دهشة السمائيين، الذين يرون الترابيين صاروا شركاء معهم في الحياة السماوية.

---

[1] الميمر ٨ على رجوع آدم، قبطي، الميمر ٧٧ على خلقة آدم وحياة الموتى (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني).

[2] الميمر ١ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

يقول **القديس أغسطينوس:**

[الجسم البشري هو إعلان عن صلاح الله وعناية خالق الجسم.]

[الجسد ليس شرًا بل يلزمنا تجنب الشر، أي الخطأ الذي به يصير الإنسان مخطئًا، الأمر الذي لم يخلق عليه الإنسان، إنما هو أوجده. لأن كلا جانبي الإنسان - الجسد والنفس - خلقهما الله الصالح صالحين. أما الإنسان فصنع الشر، وبذلك صار شريرًا[1].]

[لا أقول أي خطأ، بل أي جنون مطبق هذا الذي ينسبه أتباع ماني لجسدنا، أنه "**عنصر ظلمة**"... مع أن المعلم الحقيقي (بولس الرسول) يوصي الرجال أن يحبوا نساءهم على مثال حبهم لأجسادهم، وفي نفس الوقت على مثال حب المسيح للكنيسة[2].]

[إنه بسب حسن كتب إلى أهل رومية: "فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدِّموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله، عبادتكم العقلية". (رو ١٢: ١) باطلاً نناضل بأن الظلمة غير النور، والنور خلاف الظلمة، إن كنا نقدم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله من أجسادنا التي هي "عنصر الظلمة[3]".]

يقول **القديس چيروم:** [قيثارتنا إنما هي جسدنا ونفسنا وروحنا يعملون معًا في توافقٍ، لتقدم أوتارها جميعًا النغم![4]]

❖ صورة شبه ربك في نفسك، **وجسدك منتصب لئلا يكون منحنيًا كالحيوانات التي تسجد أمامك.**

لقد مدَّك وجعلك مستقيمًا، ورفع أنظارك إلى العلو، لترى كيف أن مكانك جميل، فتتأمل فيه.

أدر وجهك نحو مكانك الأول، لأن هذا المكان الساكن فيه ليس لك.

ها إن مظهر جسدك يصرخ أنك لست أرضيًا.

إنك غريب ومستوطن في هذا المكان، فلا تفكر بما ليس هو ملكك.

---

[1] العفة للقديس أغسطينوس، ٢٠.

[2] العفة للقديس أغسطينوس، ٢٢.

[3] العفة للقديس أغسطينوس، ٢٤.

[4] *On Ps. 21.*

لا تجمع لك ثقل العالم، وتغرق نفسك المرسوم عليها صورة اللاهوت العظيم. إنك صورة الله، فأطلب ما هو فوق، ولا تنحدر لتطلب الأرض كالحيوانات.

إنها إهانة لصورة الملك أن تطلب (بدلها) صورة العبيد، وتحط من قدرها، محتقرًا إياها.

لماذا لا تفكر في قيمتك أيها الإنسان (مز ٤٨: ١١-٢١)؟ إن رأسك غير منحنٍ مثل الحيوانات.

لماذا تشبه البهيمة بأعمالك؟ إنها لا تفكر إلاَّ بما هو للبطن. لا تتشبه (بالحيوانات) المنحنية والساجدة لك، لئلاَّ تصير كالبهيمة وتشبهها[1].

القديس مار يعقوب السروجي

النفس البشرية سيدة الجسد

❖ طبيعة النفس عظيمة وجميلة بخلقها... عندما تُعتبر سيدة الجسد ولا يأمرها. وتديره بالقداسة دون أن يعصى أوامرها، وعندما تتنقى من كل النزوات الجسدية، تنظر وترى روحيًا الأسرار الخفية. فإن اجتاز أمامها ملاك لا يُخفى عليها. ترى الملائكة والأبالسة وجهًا لوجه[2].

القديس مار يعقوب السروجي

الإرادة المقدسة تسند النفس والجسد معًا

الجسد شريك للنفس في كل شيء، في أخطائها كما في توبتها. إن فسدت الإرادة يصير الجسد ثقلاً على النفس ليحطمها، وإن تقدَّست الإرادة يسند الجسد النفس حيث يمارس بجسده القراءات والأصوام والمطانيات والبذل. فيحقِّق الجسد شهوات الروح المقدّسة، ويعتز بهذه الشركة التي تبلغ به إلى شركة المجد الأبدي مع النفس.

---

[1] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٩٢-٩٣.

[2] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٥٣.

يقول **القديس غريغوريوس النيسي:**

[ليس الجسد هو مصدر الشر، إنما حرية الاختيار (الإرادة الحرة)[١].]

[الجسد هذا أداة الروح... العامل في صحبة النفس[٢].]

❖ أيتها الإرادة الموجودة بين الجسد والنفس، قومي واظهري لنا أنكِ تقسمين بعدالة. شريكان يطالبانك باحتياجاتهما، فوزِّعي بعدلٍ إن كنتِ منصفة[٣].

❖ إن الشهوات تظلم العقل من الفهم. ومن قلل من الطعام استنارت أفكاره. من يكثر الطعام ينزل بنفسه لتصير جسدًا. ومن جعل الجسد صغيرًا حثه ليصير روحًا. إن الجسد عبـــد، وبقدر ما تطالبه يطيعك. وإن قدمت له الزيادة تمرَّد عليك. إنه يطالب بالعادات، فلا تقدم له عادات سيئة وإلاَّ تقوَّى. وإن دعوته لن يصغي إليك. حدد له مقياسًا لأكله وشربه، ولا تجعله يتعود على عادات غير منتظمة نهائيًا[٤].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] *De Mortius. PG 46:529A.*

[٢] *In Christ, resurrection, 3.*

[٣] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٦٤- ٦٥.

[٤] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٦٨- ٦٩.

٦. الإنسان خليقة مائتة وخالدة معًا[١]

يميز **القديس يعقوب السروجي** بين ثلاث فئات من المخلوقات:

مخلوقات بطبعها مائتة، كالحيوانات، لا حرية لها، وأعمالها لا تؤثر على طبيعتها، سواء كانت صالحة أو شريرة. هذه المخلوقات نهايتها الموت.

مخلوقات بطبيعتها الخلود، وهي الملائكة والشياطين، هم أحرار كالبشر.

خليقة مائتة وخالدة معًا، وهي آدم، كان له أن يختار حسب إرادته أن يحيا أبديًا أو يموت. إنه مائت ولا مائت. يقول **القديس يعقوب السروجي** عن آدم:

- إن تأمَّلت في جبلته، علمت أنَّه مركب. إنه مائت وخالد. وضع الخالق بمهارته الطبائع، فصنع إنسانًا واحدًا من الحياة ومن الموت.
- أقام صورة، نصفها ميت ونصفها حيّ، لكي تخضع للحالتين بتمييزٍ.
- الجسد علة الموت، لأنه من تراب، وفيه أيضًا علة الحياة، لأن نفسه روحية. إذًا فنفسه هي الخالدة.

القديس يعقوب السروجي

يرى **القديس يعقوب السروجي** أن الجسد لا يستطيع أن يعيش وحده، كذلك لا تستطيع النفس أن تعيش وحدها. هذا الرأي سبقه فيه **العلامة أثيناغوراس** مدير مدرسة الإسكندرية في القرن الثاني.

يرفض أثيناغوراس المعتقد الأرسطاطولي الذي يقول بأن النفس ملازمة للجسد، ولا يمكن أن تنفصل عنه، وهو في هذا يتبع **القديس يوستين** Justin، إلاَّ أن أثيناغوراس يختلف عن يوستين في تأكيده بأن الإنسان ليس فقط نفسًا ولا فقط جسدًا، ولكنه **كائن مركب من هذين العنصرين متحدين في واحدٍ**، ووظيفة النفس قائمة على قيادة الجسد. وهنا يقترب أثيناغوراس في آرائه من آراء أفلاطون. إلاَّ أن أثيناغوراس يختلف عن أفلاطون، فهو يرى أن الحقائق المتواجدة في الإنسان لا يمكن أن تكتمل بدون مساندة كلا من الجسد والنفس معًا،

---

[١] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥؛ القمص تادرس يعقوب ملطي: آباء مدرسة الإسكندرية، ١٩٨٠، أثيناغوراس.

فالاثنان يشتركان في تكوين كائنٍ واحدٍ، وهذا الكائن الواحد تُسند إليه كل الأفعال[1]. أما أفلاطون، فيرى الإنسان كروحٍ يستخدم الجسد، وهذا المفهوم المسيحي للإنسان يقوم على الفكر العبري بأن الإنسان ليس (له) جسد بل (هو) جسد بدون أي تمييز جامد بين ما هو بدني وروحي. الإنسان كائن كلي، **الإنسان في كيانه الكلي حسب الفكر العبري المسيحي، ليس روحًا بلا جسد، بل هو كائن واحد روحي وجسدي.**

هكذا اختلف أثيناغوراس عن أفلاطون، فالأول يرى الإنسان نفسًا وجسدًا وحدة واحدة، ما يصدر عنه يشترك فيه النفس والجسد معًا، أما الثاني فيرى الإنسان مجرّد نفس تستخدم الجسد[2]...

يرى أثيناغوراس في أعضاء الجسد آلات خلالها تتم الأفعال، وبها تظهر الأفكار والأقوال؛ لكنها تشترك مع النفس في المسئوليّة. لهذا لا تقوم العبادة الكاملة بغير شركة الجسد مع النفس، ولا تكون الدينونة عادلّة إن لم تقع على الاثنين[3].

لقد كان رد فعل أثيناغوراس ضد التعاليم الإغريقية قويًا، وهو يصر على أن الإنسان لابد وأن يكون له جسد أبدي. وذلك إن كان الإنسان لا يكتمل إلاَّ بجسده، فإن **الجسد ليس سجنًا، ولا قبرًا للنفس** (كما هو وارد في الفكر الثيناغوري والأفلاطوني)، وإن **وحدة النفس بالجسد هي أمر صالح**، وهي أيضًا ضد الفكرة الأفلاطونية عن تناسخ الأرواح.

❖ لم يُمنح الجسد حياة دائمة من دون النفس، ولم تُمنح النفس إحساسًا من دون الجسد. فحياة النفس هامدة من دون الجسد، والجسد الموضوع في التراب يبقى بدون حياة.

القديس يعقوب السروجي

يتساءل البعض: هل خُلق الإنسان مائتًا أم خالدًا؟ في حيرة، انقسم الآباء السريان إلى ثلاثة مواقف بالنسبة للإجابة على هذا السؤال.

الموقف الأول: لثيؤدور أسقف المصيصة ونرساي وآباء المدرسة النسطورية، هؤلاء يرون أن الله خلق الإنسان قابلاً للفساد. جاءت الوصية ليمارس الإنسان حريته، ويعرف أنه قابل للموت.

---

[1] *De ressurectione 12.*
[2] *J. Danièlou: The Theology of Jewish Christianity. London 1964, P 47.*
[3] *Apology 27; De ressurectione 12.*

الموقف الثاني: موقف أصحاب الطبيعة الواحدة مثل **القديسين ساويرس الأنطاكي وفيلوكسينوس أسقف منبج**، يعتقدون أن الله خلق آدم خالدًا بطبعه، وحُكم عليه بالموت بعد الخطية، فورثت البشرية الموت من آدم، وصرنا بالطبيعة مائتين كميراث من أبينا آدم. يرى بعض الدارسين إن **القديس يعقوب السروجي** أخذ ذات الرأي. فهو يرى في الإنسان الذي انصب فيه كل الجمالات يحمل الخلود. وإن السيد المسيح حين تجسد نزل إلى حالة آدم الأولى قبل السقوط في الخطيئة. جاء في سفر الحكمة: "لم يصنع الله الموت، ولا يُسر بهلاك الأحياء" (حك ١: ١٣). ويقول الرسول: "بإنسانٍ واحدٍ دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت" (رو ٥: ١٢).

الموقف الثالث: موقف **القديس مار افرام السرياني وديؤدور الطرسوسي وثيؤفيلس الأنطاكي**. يقول أصحاب هذا الموقف إن الإنسان بطبعه ليس مائتًا ولا خالدًا. لو كان خالدًا من بدء خلقته لكان هو الله نفسه، ولو كان مائتًا بخلقته لحسبنا أن الله هو سبب موته. بهذا فإن الإنسان بكامل حريته يختار الخلود أو الموت. يرى بعض الدارسين أن **القديس يعقوب السروجي** أخذ أيضًا بهذا الرأي. فإذ كانت طبيعة آدم جميلة وكاملة، فلأنها خالدة وقابلة للموت معًا، مؤلَّفة من نفس كالملائكة، ومن جسد كالحيوانات. ومُتمتعة بالحرية، لها أن تميل بها إلى حيث تشاء. وهذا من إبداع الخالق أنه خلق كائنًا لا يموت، إن أراد[1].

❖ جبل آدم وأعطاه أن يحيا فوق الموت، أما قبوله مشورة الشرير، فهذا بمحض إرادته[2].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] راجع الدكتور بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، موسوعة "عظماء المسيحية في التاريخ" لبنان ١٩٩٥.

[2] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ١٩٦.

٧. نفس الإنسان فردوس مثمر

النفس هي أرض الفردوس

إن كان الله قد هيأ الأرض كلها كقصرٍ للإنسان الملك، وأعد جنة عدن ليعيش مع حواء كعروسيْن متهللين، يجدان الخليقة تخضع لهما لسعادتهما، فإنه أراد أن يحمل الإنسان جنة أجمل وأكثر ثمرًا في أعماقه، فأقام نفسه فردوسًا مثمرًا بغنى نعمة الله الفائقة.

أقام الإنسان في جنة عدن ليعملها ويحفظها (تك ٢: ١٥)، والآن عهد إليه بعملٍ أعظم ألا وهو أن يعمل بالنعمة الإلهية في فردوس نفسه. فلا يقف في سلبية، يجد كل ما في داخله من بهاء وجمال، ينعم بلذة العمل بالإمكانيات الإلهية الموهوبة له!

❖ النفس هي أرض ذلك الفردوس المباركة، لا تقبل فيها زرعًا مسروقًا ليس خاصًا بها.

كانت قد خُلقت من قبل خالقها أرضًا صالحة لتفلح هي ذاتها، وتزرع فيها زرعًا جيدًا.

لا تقبل فيها الكبرياء ولا الحسد، الشتلة الشريرة، لئلا تصير غريبًا عن الله.

لا يسكن فيها الحقد والضغينة والغضب، لئلا تفسد أرض النفس المملوءة جمالاً.

لا يسقط فيها الفجور البغيض الذي يدنسها، فتصير شبيهة ببالوعة القذارة النتنة.

لتبتعد عنها السرقة والظلم، لئلا تستوجب قصاص رجم مهلك.

لتستأصل منها محبة المال التي هي كلها شر، لئلا تلبس عار جيحزي الطَّماع.

لتطرد منها الخداع والقتل والكذب، لئلا تُلعن من قِبَل الله على شبه قايين.

لا تكن فيها الخطايا السمجة التي تدنسها، لئلا تحترق كأرض السادوميين.

لا تنبت فيها هذه الزروع، وقود النار، لئلا تحترق مع الزارع الذي زرعها.

لتكن نفسك كفردوس عدن العظيم، فتُنبت وتُخرج شتلة صالحة تحمل الثمرات[١].

القديس يعقوب السروجي

---

[١] الميمر ٦٦ على شجرة معرفة الخير والشر وعلى الصدقات وعلى الفقر (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني).

٨. الإنسان كائن مُسبِّح: موسيقار أم آلة موسيقية؟

خلق الله الإنسان ككائنٍ متهللٍ، يمارس على الأرض الحياة السماوية التي لا تعرف إلا الفرح الدائم. يُرنِّم المُرتِّل، قائلاً: "ابتهجوا أيها الصديقون بالرب، للمستقيمين ينبغي التسبيح. اعترفوا للرب بقيثار، وبكينارة ذات عشرة أوتار رتلوا له. سبحوا له تسبيحًا جديدًا؛ ورتلوا له حسنًا بتهليل" (مز ٣٣: ١-٣).

آلة موسيقية فريدة

يذكر المرتل آلتين موسيقيتين هما القيثارة والكينارة ذات العشرة أوتار، ليعلن أنه يليق بالإنسان كموسيقارٍ فريدٍ أن يسبح الله ويعزف التسابيح بكل كيانه بجسده كما بنفسه؛ بلسانه كما بقلبه، جهارًا كما سرًا.

يسبح الصديقون الرب بأجسادهم التي يقدمونها ذبيحة حية مقبولة (رو ١٢: ١). يقول **القديس أغسطينوس:** [ليته لا يفكر أحد في الآلات الموسيقية التي للمسارح، فالأمر هنا يشير إلى أمورٍ داخليةٍ، كما قيل في موضع آخر: "فيّ يا الله أرد لك التسبيح".]

تشير القيثارة إلى الجسد المقدس الذي يمجد الله، يشكره ويسبحه لا باللسان فحسب، بل وبكل كيان الإنسان: الجسد بحواسه الخمس والنفس بحواسها أو قدراتها الداخلية الخمس. وكأن رقم ١٠ في الكينارة ذات عشرة أوتار يشير إلى الجسد والنفس والعقل والعواطف والأحاسيس الخ. الكل يسبح الله بتناغمٍ وانسجامٍ بقيادة الروح القدس، خلال الطاقات والقدرات المنظورة وغير المنظورة.

❖ أجسادنا ونفوسنا هي قيثارتنا تعمل في تناغم معًا بكل أوتارها في لحن![1]

القديس جيروم

فسّر **القدّيس إكليمنضس السكندري** المزمور ١٥٠ الذي تسبحه الكنيسة أثناء التناول بطريقة رمزية جميلة، فيها قدّم الكنيسة المقامة من الأموات خلال عريسها القائم من الأموات **كأداة موسيقيّة، حيّة يلعب عليها الروح ليخرج تسبحة حب صادق لله.**

---

[1] *Homilies on the Psalms, 21.*

❖ في الخدمة الإلهيّة يترنَّم الروح...

"**سبّحوه بصوت البوق**"، لأنه بصوت البوق **يقيم الأموات.**

"**سبّحوه بالمزمار**"، فإن اللسان هو مزمار الرب.

"**سبّحوه بالقيثارة**"، هنا يقصد الفم الذي يحرّكه الروح كالوتر.

"**سبّحوه بطبول ورقص**"، مشيرًا إلى الكنيسة التي **تتأمّل القيامة من الأموات خلال وقع الضرب على الجلود** (إشارة إلى الأموات، حيث تُصنع الطبول من جلد الحيوانات الميتة).

"**سبّحوه بالأوتار والأرغن**"، يدعو جسدنا أرغنًا، وأعصابه هي الأوتار التي يضرب عليها الروح، فتعطي أصوات بشريّة منسجمة.

"**سبّحوه بصنوج حسنة الصوت**": يدعو اللسان صنجًا، إذ يعطي الصـــوت خـــلال الشفتين.

لذلك يصرخ إلى البشريّة قائلاً: "**كل نسمة فلتسبح اسم الرب**"، لأنه يعتني بكل مخلوق يتنفّس. حقًا إن الإنسان هو آلة السلام[1].

القدّيس إكليمنضس السكندري

الرب العازف علينا كقيثارته الخاصة

اعتاد **القديس مار يعقوب السروجي** الشعور بالعجز البشري، فحسبَ نفسه قيثارة، تبقى أوتارها صامتة بلا نفع، ما لم يُحرك الرب نفسه أصابعه عليه كقيثارته الخاصة، لينشد تمجيدًا لائقًا به. إنه ليس في حاجة إلى تسابيحنا، إنما بتسبيحنا له نتمجد نحن!

❖ لا تقدر القيثارة أن ترتل من نفسها، إن لم يضرب عليها الحامل لها، وإلا تبقى خرساء صامتة.

الذي يضرب على القيثارة يحرك إصبعه بمهارة، فيوقظ فيها صوتًا...

الوتر هو النفس، وهى صامتة عن تمجيدك! اضرب عليها، فترتل بأصوات المجـــد بدهشٍ عظيمٍ.

---

[1] *Paedagogus 2:4.*

إنك لست محتاجًا لتمجيد الأرضيين، بل تعظيم الجنس البشري هو المحتاج إليك يا أيها الغني.

❖ ليكن لك فمي يا ابن الله كنارة أصوات، ليرتل يا رب بفمٍ مفتوح، وأنا مندهش، لأنك أنت فتحته بموهبتك ليتكلم عنك[1].

❖ يا ابن الله، الكلمة الذي لا يُوصف، أعطني الكلمة التي ترنم بتسبيحك بسخاء.

أيها الخفي الذي شئت أن تكون ظاهرًا، اكشف نفسك لي، حتى أستطيع أن أرفع صوتي، وأعلن للناس بصوتٍ عالٍ خبرك الخفي.

إن ذهني خصيب، وهو يحملك عبر أفكاره، وبكلمة الفم يحملك الصوت للسامعين.

❖ دعْ يارب الكل قيثارتي تتحرك بك لتسبيحك، لأن بك يستطيع الإنسان المشتاق أن يصفك.

يا سيدي، أنجب لي ألحانًا وكلمات وأنغامًا، حتى يستطيع فمي أن يتكلم عنك بإسهابٍ.

ليكن لساني قلمك، أيها المعلم المملوء بالحكمة، وبه ينطق بميمرك على السمع بمحبة.

دع محبتك تحركني لأتكلم عنك ببصيرةٍ، بنفسٍ غير مستحقةٍ، متعجبة من ميلادك.

ابن العلي الذي شاء أن يكون مثل البشريين الفانين، فيك ترتفع كلماتي الضعيفة إلى سمو أبيك.

أنت أعظم يا سيدي من الأفكار والألسنة، وتتصاغر العقول والأفهام عن وصفك.

ميمرك مستتر عن الكائنات الأرضية والكائنات السمائية، وخبرك غير مُعلن للسمائيين كما للأرضيين.

لا يفهمك البشر ولا الملائكة، لأن عجبك أسمى من الأرضيين والسمائيين.

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥م، ص ٣٦.

يرى **القديس مار يعقوب السروجي** أن الله في حبه للإنسان خلقه **كائنًا موسيقارًا متهللاً، يشارك السمائيين فرحهم به، وتسابيحهم له.**

❖ يا ابن الله حرِّك الحاني لتسبيحك، وبتراتيلها تهلل لك كل حواسي.
منذ البداية مُهيأ لساني لتسبيحك، ولو توقف عن تسبيحك يستحق القصاص.
ربي، لن أهدأ من التغني بتراتيلك، لئلاَّ أُعذب من قبل العدالة في الدينونة العادلة.

فم الإنسان مهيأ لتسبيح اللاهوت، ومن يهدأ من التسبيح يُلام ويُحتقر.
عندما خلق الخالق الفم، وضع فيه الصوت والكلمة ليتحرك للتسبيح.
هكذا يجب على كل من شعر بوجود الخالق أن يسبّح الرب الذي خلقه.
ليس فم الإنسان مسلطًا ليستخدم الأخبار التافهة والكلمات غير اللائقة.
عندما خلق الخالق الفم أتقنه لتسبيحه، وليس ليتلفظ بأمورٍ باطلةٍ.
يقول الرب لمن يتوقف عن تسبيحه: اصرخ بحنجرتك، وارفع صوتك كالبوق.
ربي، أنا خليقتك، ساعدني لأتعجب من أعمالك،
واسمح لي أن أسبح كما يليق بخليقتك.
اسمح للقلب أن يخدمك بأفكار القداسة،
لأنك رهيب على المخلوقات.
قدّس لساني من كل الأخبار العالمية،
وبعِشرتك يتحرك للتسبيح،
ربي، ها قد فتحتُ فمي، فاملأه من تسبيحك كما وعدتَ،
ولا يمر فيه كلام باطل ليتفوه به،
لتتحرك ألحاني صوب موهبتك المليئة عجبًا[1].

القديس مار يعقوب السروجي

الميمر ١ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

حب الصديقين للتسبيح

❖ يا رب لن أتوقف عن تسبيحك، حتى بعد وفاتي.

من يحيا لك وبك لا يموت؛

ولا يقوَ صمت الموت على إسكاته.

إذًا، فليتكلم فمي، ليُكررّ بعد موتي في المستقبل.

القديس مار يعقوب السروجي

الأطفال والرضع يتهللون مسبحين

❖ تحرّك الأطفال ليهتفوا بتمجيدهم له.

صرخ الودعاء: "مبارك الآتي باسم الرب".

ضفر الأطفال إكليل التسبيح بفرحهم بعتيق الأيام، الذي صار طفلاً بين اجتماعاتهم.

حمل زكريا النبي قيثارة الروح، وأسرع قدامه بالتراتيل النبوية، شد أوتاره بابتهاجٍ، وحرّك صوته، وقال:

"ابتهجي جدًا يا ابنة صهيون"...

افرحي واصرخي بالمجد المرتفع، لأنه يأتي إليكِ كما أخبرتكِ النبوة.

القديس مار يعقوب السروجي

٩. الإنسان كائن مُحيِّر للسمائيين

المخلوقات السماوية لا تعرف مَن هو صاحب هذا السكن

في تصويرٍ عجيبٍ يرى القديس مار يعقوب السروجي الطغمات السمائية وهي تُمجِّد الله خالقها تدهش لعمل الخلقة. ترى في هذا العمل الإلهي إعدادًا لعُرس فريد. بيت الزوجية الذي هو الأرض يُقام بدقةٍ عجيبةٍ، وحجرة العروس الخاصة أو بيت الحريم أو جناح النساء أُقيم بإبداع. لقد أُعدت الورود لعمل تاجيْن للعروسين، وكل الخليقة استعدت لتقديم هدايا لهما، حتى الشمس تشرق وتغرب وهي تترقب مجيء العروسيْن المجهوليْن لهما، وأيضًا القمر والأيام والليالي تعبُر والعروسان لم يحضرا بعد. الأشجار بكل ثمارها والكروم بعناقيدها تنتظر من يقطفها، حتى الأسماك تلعب في المياه تترقب من يصطادها... كل الخليقة تتساءل: متى يأتي العروسان، آدم وحواء!

هذا ما تصوَّره القديس من جهة الطغمات السمائية وهي في دهشة لا تجسر أن تتساءل: ماذا يفعل الله؟ من الذي يستخدم هذه الخليقة بكل إمكانياتها وعظمتها! تُرَى كيف استقبلت يوم خلقة العريس وأيضًا عروسه: آدم وحواء؟

❖ كانت العساكر السماوية منذهلة بذلك الإتقان، لأنها لم تكن تعلم لِمَن هو.

الخدر مُسقف ولم تكن تُعرف من هي العروس، والبيت مهيأ ولم يكن يُعرف من يسكنه.

الختن غير موجود، أما عرسه فعامر، والخليقة قلقة لأجله وهو غير مولود.

هوذا المخلوقات تحمل المهر والهدايا لتقدمها للعريس والعروس اللذين لم يكونا مصنوعَين.

الورد مهيأ ليزيّنا به أكاليلهما...

الشمس تشرق وتأتي وتروح لأجله، والقمر مسرع ليغيّر الأزمنة لأجله.

كانت الأيام والليالي تتعاقب، وتفتش على آدم، وآدم ليس بين الأشجار.

الدار مشيدة، ولا ساكن ليسكنها، وكثر المقتنى ولا مالك ليتسلط عليه.

النور حسن، ولا ناظر ليتفرس فيه، والبقعة جميلة، ولا ساكن ليشتهيها.

تتناثر الأثمار من الأشجار ولا (يوجد) آكل، والجفنات جميلة بعناقيدها، ولا (يوجد) قاطف.

تلعب الأسماك في الأنهار، ولا (يوجد) صياد، وتنتظر البرية لترى الوارث وليس موجودا ليرثها.

الجنة مفتوحة وتنتظر أن يدخل البستاني، وتنتظره الأثمار الشهية ليقطفها[1].

---

[1] الميمر ٧١.

١٠. الإنسان مدعو لرؤية الله والمعرفة الإلهية

الإنسان مدعو لرؤية الله![1]

يا للعجب الإنسان العاجز عن رؤية نفسه، أو تحديد موضعها في جسده، مدعو لرؤية الله غير المنظور. "طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨).

بينما يؤكد الكتاب المقدس بعهديه عدم إمكانية الإنسان لرؤية الجوهر الإلهي، تمتع إشعياء النبي بالحضرة الإلهية (إش ٦٣: ٩)، وصارع يعقوب مع الله (تك ٣٢: ٢٤-٣٠)، وتحدث معه موسى وجهًا لوجه، فأضاء وجهه من بهاء مجد الله (خر ٣٣: ١١؛ تث ٣٤: ١٠). ويطلب المرتل من الله أن يشرق بنور وجهه عليه (مز ٤: ٦؛ ٣١: ١٦ الخ)، ويتحدث الرسول بولس عن رؤية الله (رو ١: ١٩-٢٠؛ ١ كو ٢: ١٠-١٣؛ ١٣: ١٢؛ ١ يو ٣: ١- ٢).

الكلمة الحقيقي والابن الوحيد الجنس وحده يرى الآب رؤية الواحد معه في ذات الجوهر. ليس من مجالٍ للمقارنة بينه وبين إبراهيم أب الآباء، أو موسى مستلم الشريعة، أو غيره من الأنبياء، ولا وجه للمقارنة بينه وبين أية طغمة سماوية. إنه الابن الوحيد الحقيقي القائم في حضن الآب، أي في أعماقه، لا ينفصل قط عنه، موضع سروره، قادر أن يعلن عنه، ويكشف عن أسراره الإلهية وخطته الفائقة. هكذا نلنا في المسيح إعلانًا واضحًا عن الآب الذي لم يره أحد قط. هذه هي النعمة، وهذا هو الحق الإلهي الذي صار لنا في المسيح، وهي "**المعرفة والرؤيا**".

الله روح، فلا يقدر الجسد على معاينته، لهذا تجسد ابن الله ليهبنا الميلاد الجديد الروحي، فنرى ذاك الذي لا يُرى (عب ١١: ٢٧)، ونحيا به. هو وحده يفتح الختوم (رؤ ٥: ٩) لنتعرف على أسرار الله الآب.

❖ **نفس الإنسان مثل المرآة الجميلة، فإذا نُظفت تنظر وترى بها حتى الخفايا.** أما إذا حملت الغبار والوسخ، أي الاهتمام، فلن ترى حتى ذاتها كيف إنها سمجة[2].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] أرجو الرجوع إلى كتابنا "رؤية الله عند آباء الكنيسة".

[2] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٥٥.

١١. الإنسان والشركة في صلاح الله

يرى **القديس غريغوريوس النيسي** أن الله يُقدم ما أمكن من الإمكانيات الإلهية لصالح الإنسان، فقد خلق الإنسان يشاركه صلاحه قدر ما يستطيع الإنسان، بكونه صورة الله ومثاله. وهب الإنسان عقلاً وحكمة يجعلانه منجذبًا نحو إلهه، يود أن يتشبه به، وينمو في معرفته. ويجيب على التساؤل: أين هو تحرر الجسد من الشهوات، أي التمتع بالحياة الأبدية؟ قائلاً: [كون حياة الإنسان في الوقت الحاضر تُحسب في حالة غير طبيعية، هذا ليس برهانًا أنه في يومٍ من الأيام لم يُخلق محاطًا بالصلاح. لأنه مادام الإنسان هو عمل الله، الذي جاء به إلى الوجود بصلاحه، فلا يُعقل أن نتصور الله يخلقه محاطًا بالشر، الصلاح هو علة وجوده... **خلق الله الإنسان ليشاركه في صلاحه الفريد، ويعضده بقدرة طبيعية على كل نوعٍ من الكمال، حتى إذ يكون متمثلاً بالله، ينجذب إلى مثيله**[١].]

❖ عندما يشن الشيطان حربًا على الإنسان، يوجد ملاك يعينه وهو لا يدري، مثلما حدث للكاهن العظيم يهوشع بن يهوصادق (زك ٣) الذي ساعده الملاك. صرخ الملاك بالعدو دون أن يشعر، ورأى النبي ما حدث، أما الكاهن فلم يرَ. هكذا تتواجد الملائكة يوميًا عند كل إنسانٍ ليزجروا طغمات الأبالسة لئلا يلحقوا به الأذى[٢].

❖ نجني من الشرير، لأن قوتك عظيمة. لا تسلمني إلى العدو ليحاربني بدون عونك، لكنك تنتصر عليه أنت بي أنا الضعيف! لا يبتعد عني عونك الخفي، أي قوتك التي لا تجربني، لأنني تيقنت إني ضعيف. ليكن الصراع كله صراعك، وأنت تنتصر، وكل انتصارات المنتصرين هي انتصاراتك. فانتصر أنت، لأن النصر يليق بك. أما أنا فلا تدخلني في التجربة. نجني من العدو الذي يخاصمني، ولا اقدر أن انتصر عليه بدون عونك... استلم المعركة وخذ النصر اللائق بك. نجني منه!.. بالمراحم نجني من الشيطان الذي يحاربني، لأنه بك تليق كل الانتصارات، وإليك تُنسب[٣].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] *Oratione Cat. 5.*

[٢] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ١٥٣-١٥٤.

[٣] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ١٥٥.

١٢. الإنسان والسعادة الدائمة

أسعد كائن على وجه الأرض

رأينا أن علاقة الله بالإنسان في جوهرها علاقة حب فائق. خلقه الملك المحبوب لديه جدًا، على صورة ملك الملوك ورب الأرباب. أقامه سفيرًا له ووكيلاً للسماء. أوجده كائنًا مُسبحًا، ينضم إلى خورس الطغمات السماوية كموسيقار مُبدع، أو يعزف عليه روح الله القدوس كآلة موسيقية فريدة. في اختصار، إنه مدعو لرؤية الله والتمتع بالمعرفة الإلهية، ولسكنى الله كهيكلٍ مقدسٍ له، ينعم بالشركة في صلاح الله، كائن عامل كخالقه، دائم النمو هنا وفي الدهر الآتي. يليق به أن يتغنى على الدوام، قائلاً: "أنا بإلهي أسعد كائن على وجه الأرض".

هذا ما يشعر به بحق من يتلامس مع الله مصدر الفرح الحقيقي.

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [من يقتني الله فهو سعيد[١].] كما يقول: [تبعية الله هي الرغبة في السعادة، وبلوغ الله هو السعادة عينها[٢].]

❖ تغتني النفس بالله متى أحبته، فتأكل وتشرب منه عندما تتبعه... ولأن موسى أطال التطلع إليه استنار جدًا، فشرب منه إلى أن أضاء مثل النهار.

تأكل النفس من الله وتشبع منه، حتى أن الجسد ذاته يعيش بدون همٍّ (مت ٦: ٢٦-٣٤). عاش موسى أربعين يومًا منقطعًا عن الطعام والشراب دون أن يجوع[٣].

❖ **أكل الخبز ثقل وكسل؛ أما كلمة الحياة، فتربِّي أجنحة للنفس لتطير بها[٤].**

❖ عندما يؤكل الخبز يثقل على آكليه؛ أما العلم فيجهِّز النفس بالأجنحة لتطير[٥].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] *De beata vita, 2:11.*
[2] *Morals of Catholic Church. 3:4; 11:18.*
[٣] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٦٩-٧٠.
[٤] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٥٣.
[٥] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٥٤.

١٣. الإنسان كائن دائم النمو هنا وفي الدهر الآتي

الحب الإلهي والنمو المستمر في النعمة والحكمة والمعرفة

الله وحده غير المتغير، لا يحتاج إلى نموٍ، لأنه كامل مطلقًا، أما الكائنات العاقلة فإمَّا تنمو أو تنحدر. يقول **القدِّيس أغسطينوس**: [هب أن أكون دائم النمو في تذكرك، وفي إدراكك، وفي حبي لك، حتى تبلغ بي إلى الكمال[1].] ويقول **القديس باسيليوس الكبير**:

[افحص تصرفاتك كل يوم، وقارنها بأحداث اليوم السابق وجاهد نحو التقدم.

تقدم في الفضيلة لتصير في صحبة الملائكة.

اقضِ وقتك في خلوة، لا لأيام وشهور، بل لعدة سنوات، تُسبِّح ربك بالأغاني، ليلاً ونهارًا، مقتديًا بالشاروبيم.

إن بدأت هكذا، وانتهيت هكذا مسافرًا في الطريق المستقيم إلى وقت قصير لامتحانك، فإنك بنعمة الله تدخل الفردوس بسراج نفسك المنير ببهاءٍ، لتفرح مع المسيح إلى أبد الأبد. آمين[2].]

❖ لا يستطيع من يسعى في إثر الكمال ويتمسك بالصعود إلى السماء، ويتطلع إلى درب العلو، أن يتوقف في علوٍ واحدٍ، ظانًا أنه اكتمل في عمله، ولم يعد في حاجة إلى الصعود إلى درجة أخرى، لكنه يسرع يوميًا ليرتفع إلى أعلى، إلى أن يفتح له الموت الباب ليبلغ إلى ميناء القديسين.

أقول لك يا محب الفضائل، يحسن بك أن تفكر وتتأمل أن تتقدم نحو الأمام.

ويجدر بك أن تحسب أنه توجد سيرة أعظم من سيرتك.

لو فكرت أنك تسلقت بواسطة الفضيلة بقدر ما كان ينبغي أن تتسلق، لكان سعيك باطلاً، وتبدأ في الهبوط بسبب الادعاء الذي يخامر نفسك، فتنحدر من جمال التواضع[3].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] *On the Holy Trinity, 28:51.*

[2] *On Renunciation of the World, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 31).*

[3] الرسالة الخامسة.

١٤. الإنسان كاهن يُقدِّم ذبائح التسبيح

يرى **القديس مار يعقوب السروجي** أن الله أقام آدم كاهنًا، يُقدِّم له ذبائح الشكر والتسبيح بيدين نقيّتيْن ونفسٍ طاهرةٍ. لكن إذ تلوثت طبيعته، فقد سِمة الكهنوت، وكان يأمل في ابنيْه أن يمارسا العمل الكهنوتي ليزول الغضب الذي صار يوم طُرد مع حواء. **وهو رأي منفرد لم نسمع عنه بين آباء الكنيسة**. لعلّه يقصد الكهنوت العام الذي صار للمؤمن ليقدم ذبائح الشكر والتسبيح والصدقة وكل ممارسات العبادة الشخصية والأسرية.

❖ منذ البداية عندما خلق الرب آدم، جعله كاهنًا ليقوم على خدمته[١].

❖ كان (آدم) يحثهما (قايين وهابيل) ليقربا القرابين للرب، ويرضيانه باحترامهما.

كان يحرضهما منذ البدء على ممارسة الكهنوت لإزالة الغضب الموجود هناك وذلك بواسطة الذبيحة...

كان يشرح لهما (موضوع) سلطته الأولى وضعفه وطرده يوم فُضح...

كونا لي يدين، وبواسطتكما أعمل الخير. اذهبا وصالحا الرب الغاضب بسبب ذنبنا...

لن أقرب ذبيحة للرب لأنني لست طاهرًا، لأن الخطيئة خاطئة فيّ، وتُدنِّس ذبيحة يديّ.

ليس من السهل أن أكون حَبرًا أمام القدوس، فليس مستحسنًا أن يقدم الكاهن الطريد الذبيحة.

لا يحق للرِّجْل التي مشت نحو الشجرة أن تطأ درج الكهنوت وهي دنسة.

لا يحق لليد التي قطعت الثمرة في عدن أن ترفرف على قربان اللاهوت.

لا يليق بفم والدكما الشره، أن يدعو الرب بسلطانٍ ليأتي إليه.

هلما أنتما، اصعدا الذبائح، وبالقرابين أرضيا الرب بتعقل[٢].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] الميمر ٥ على هارون الكاهن (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني).

[٢] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ١٠٢-١٠٣.

دخول الإنسان الأول إلى العالم
ودخول آدم الجديد إلى أورشليم

إذ نتطلع إلى تلك القصائد التي سجَّلها القديس مار يعقوب السروجي عن عظمة خلقة آدم وحواء وأيضًا ما سجَّله لنا الكثير من الآباء القديسين في هذا الأمر وبنفس الروح شعرت بضرورة وضع مقارنة بين دخول الإنسان الأول إلى هذا العالم، ودخول آدم الجديد إلى أورشليم، لا ليردنا إلى ما كان عليه أبوانا الأوّلان في جنة عدن، بل ينطلق بنا إلى أورشليم العليا أُمنًا.

	آدم الأول وحواء	آدم الثاني والكنيسة
١ **الإعداد لمجيئه**	وقف السمائيون في دهشة: لمن تُقام كل هذه الخليقة من شمسٍ وقمرٍ وكواكبٍ وأرضٍ وبحارٍ ونباتاتٍ وحيواناتٍ؟ كانت كل الخليقة الجميلة والبديعة في نظامها تترقب مجيء كائن يهتم الله به، ويُعدّ له المسكونة بكل عجائبها. كل الخليقة وُجِدَتْ من العدم وتستعد لمن تخدمه دون أن تتعرف بعد عليه.	مع كل ما أعدَّه الله لمجيء الكلمة المتجسد إلى العالم خلال الدعوة الإلهية والنبوات والرموز، لم يجد ابن الإنسان أين يسند رأسه. في دخوله أورشليم استقبله القادة بمرارة نفس وانتقدوا الأطفال والرُّضع، لأنهم يُسَبِّحون له. كما انتقدوه قائلين: بأيِّ سُلطانٍ تفعل هذا؟ ومن أعطاك هذا السُلطان؟ (مت ٢١: ٢٣).
٢ **الجسد ودوره**	أدهشت خلقة آدم السمائيين، لأنه عالم مُصغَّر: نفس تقترب من طبيعة الملائكة، وجسد يقترب من طبيعة الحيوانات. مع انسجام عجيب وإرادة مقدسة تقوده ككائن متكامل!	تأنس كلمة الله، وحلّ بيننا كواحدٍ منا (يو ١). أعلن بدخوله أورشليم أنه جاء يُصلح الطبيعة البشرية ويجددها. فجعل الأطفال والرضَّع يسبحون، عادت الأفواه إلى عملها الأصلي. فالرضيع العاجز عن أكل الطعام

	الجسد صالح وبديع ١. **جسم مستقيم** وليس منحنٍ كالحيوانات الساجدة لخدمته. ٢. **العقل** في الرأس المرتفع، ولا يحده الجسم كله، صورة لله الساكن في السماوات، ولا تسعه السماء ولا الأرض. ٣. **الفم** كبقية الأعضاء له دوره لعملٍ سامٍ شبه سماوي مع خدمة حياة الإنسان الأرضية، فعمل الفم الأول هو التسبيح والتعبير عن الحب الإلهي والأخوي، مما يجعل من الإنسان موسيقارًا متهللاً، بل ويجعل من أعضاء جسمه قيثارة، يعزف عليها روح الله القدوس، فتتهلل السماء به. "الرب إلهك... يبتهج بك فَرَحًا" (صف ٣: ١٧).	القوي، يهتف بكلمات تسبيح... تُرى من علَّمهم أو درَّبهم على هذه الهتافات المبهجة؟ رد الإنسان إلى طفولة مسبحة تشتهي الملائكة أن يشترك البشر معهم كأعضاء في خورُس سماوي متهلل. استقبال الفئات المرذولة والعاجزة، خاصة العميان والعرج (مت ٢١: ١٤)، ليُقدِّم نفسه نورًا لعيونهم، وطريقًا لأرجلهم. تجددت طبيعتهم بقبولهم له، واتحادهم معه، فيصيرون نورًا للعالم، ليس فقط يرون، بل ويدعون العميان والعرج للشركة معهم في الاستنارة والعبور إلى السماء خلال المسيح النور الحقيقي والطريق. رفض القادة هذه التسابيح ودخلوا في حوارات لا هدف لها سوى النقد غير البنَّاء. وهم في هذا يمثلون الإنسان القديم الذي لا يطيق الشركة مع الله.
٣ **عريس يطلب عروسه**	جاء آدم إلى العالم ووجد المسكونة كلها تخدمه كبيت عرسٍ، وخدر عروسه مُعَدّ لها، لكن أين العروس؟ أقامها الله نفسه من ضلع له، ليعتز بها لأنها من لحمه وعظامه. خلقها له لتكون معينة.	جاء آدم الثاني إلى البشرية، فوجدها زانية، فسدت طبيعتها، وانحرف فكرها. اقترب إليها بالوداعة والتواضع لتقبَله ويجمِّلها بروحه القدوس، ويرفعها إلى سماواته. لم يكن محتاجًا أن تعينه، بل هو معينها وطعامها وشرابها وكنزها وفرحها ومجدها... هو كل شيء لها!

٤ **ملك**	دخل آدم الأول كملكٍ، أعطاه الله سلطانًا على الأرض وسمك البحار وطير السماء، يستطيع إن أراد أن يتحدَّى إبليس وكل قوات الظلمة. بإرادته فقد سلطانه وقدسية الإرادة وحريتها، واستعبد نفسه لإبليس والشهوات والخطايا.	وهو ملك الملوك سخروا به كملكٍ. جاء لكي يرد للإنسان كرامته، ويقيم منه ملكًا (رو ٦ : ٦)، مقدسًا، يتحدَّى إبليس. له سلطان، إذ يقيم الرب في داخله "ملكوت الله". يهب النفس البشرية روح الملوكية فلا تخضع للشهوات الجسدية، ولا تُستعبَد لمحبة العالم، كما يطلب أن يصير الكل ملوكًا أحرارًا لا يستعبدون إنسانًا ما.
٥ **صورة الله**	أقامه الله على صورته ومثاله، وكما يقول مار يعقوب السروجي أقامه كتمثالٍ حيٍ لملك الملوك السماوي، حتى تتقدم له الخليقة الأرضية وتخدمه وتكرمه كسفير لله. كل خدمة تُقدم له تُحسب كما لو قُدمتْ لله نفسه. إذ أراد الاستقلال عن الله مصدر حياته، فقد هذه الصورة الإلهية.	دخل كلمة الله بهاء مجده ورسم جوهره، الواحد معه في ذات الجوهر. هو حكمة الله وقوة الله، القدير، الخالق، أخلى ذاته، وأخذ شكل العبد، وأطاع حتى الموت موت الصليب. ردّ لنا الصورة التي فقدناها وصرنا في أكثر بهاء مما كان لأبوينا آدم وحواء، إذ صرنا في أعضاء جسد المسيح، نحمل في داخلنا الروح القدس، فنصير هيكلاً لله، وذلك بفضل المسيح حمل الله فصحنا، الذي صُلِبَ لأجلنا.
٦ **إقامته في جنة عدن**	أقامه الله في جنة عدن لكي يعمل فيها ويحفظها (تك ٢: ١٥). كانت الجنة مملوءة من كل ثمار للأكل، لا يحل بها كوارث طبيعية، تجد كل المخلوقات فيها سعادتها بخدمة آدم وحواء.	دخل آدم الثاني أورشليم، ليتمتع بجنة فائقة: ١. الله نفسه هو فردوس المؤمنين الذين صاروا أبناء له. ٢. أقام "ملكوت الله" في داخله (لو ١٧: ٢١)، فصار فردوسًا ليس خارجًا عنه

	كان أبوانا الأولان يتمتعان بصوت الله ماشيًا في الجنة (تك ٣: ٨)، يدخلان في حوار ومناجاة مع الله.	يشتهيه، بل في داخله يفرح به الله وكل الطغمات السمائية. ٣. أعلن آدم الثاني أنه الباب، به ندخل إلى السماء عينها، ونصير مع السمائيين كنيسة واحدة مقدسة!
٧ **عالم صغير بديع**	دخل آدم الأول إلى العالم ليس كغريبٍ عنه، إذ له جسد مادي منظور، وفي نفس الوقت له نفس غير منظورة، وكأنه ليس بغريبٍ عن الطغمات السماوية. إنه مخلوق عجيب: عالم مصغَّر جميل، يضم فيه ما هو خالد (النفس البشرية) وما هو قابل للموت (الجسد). أقامه الله ليعيش خالدًا، لكن بإرادته عزل نفسه عن الله مصدر حياته، فسمع الصوت الإلهي: "لأنك تراب وإلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩).	نزل السماوي، خالق السمائيين إلى أرضنا، فردَّ للإنسان كرامته، إذ صار إنسانًا حقيقيًا له جسده وحواسه وعواطفه وهو القدوس. دخل أورشليم ليموت، ويُدفَن في قبر، ويصير مع الأموات، لكي يصير بكر الراقدين. قام وأقامنا معه. فيه وبروحه القدوس لم تعد السماء غريبة عنا، بل صارت مسكننا الأبدي، نتذوق هنا على الأرض عربونها. نقول مع الرسول: "أجلسنا معه في السماويات" (أف ٢: ٦). وصرنا نسمع الصوت الإلهي: "أنت سماء، وإلى سماءٍ تعود".
٨ **مدعو لرؤية الله**	دخل آدم العالم كسفير الله، حاملاً صورته، ينعم باللقاء معه ورؤيته بقدر ما تحتمل طبيعته. وكان شوقه نحو رؤية الله يزداد يومًا فيومًا. إذ أعطى ظهره لله، لم يعد قادرًا على مناجاته والتمتع	دخل آدم الثاني أورشليم وهو ابن الله الذي في حضن الآب، جاء ليخبر عنه. خلال ذبيحته، يحملنا إلى حضن الله كأبناء له. وهبنا بدمه نقاوة للقلب، فيتحقق فينا وعده الإلهي: "طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨).

	برؤيته، فقد اختفى بين الأشجار ليقول: "سَمِعتُ صوتك في الجنة فَخَشِيتُ، لأني عُريانٌ فاختبأت" (تك ٣: ١٠).	الآن يحل المسيح بالإيمان في قلوبنا (أف ٣: ١٧). نراه كما في مرآة كما بلغز (١ كو ١٣: ١٢)، لكننا سنراه وجهًا لوجه، حين نلتقي معه على السحاب، لندخل معه وبه أورشليم العليا أمنا، وننعم بحضن الآب.
٩ **كاهن**	يرى مار يعقوب السروجي أن الله خلق آدم كاهنًا، يبسط يديه فيقبل الله صلواته وتسابيحه وتهليل نفسه ذبائح تسبيح مقبولة لديه. إذ تدنست يداه وكل كيانه بالخطية، اشتهى أن يقوم أبناه قايين وهابيل بالعمل الكهنوتي للمصالحة بين الله وآدم مع نسله. ترقب مجيء المسيَّا الكاهن السماوي، ليتمم المصالحة.	بدخوله أورشليم دخل ملك وكاهن في نفس الوقت، الأمر الذي لم يكن ممكنًا في الشريعة الموسوية (الكهنة من سبط لاوي والملوك من سبط يهوذا). دخل أيضًا ككاهن وذبيحة في نفس الوقت، إذ بإرادته قَبِلَ ذبيحة الصليب. دخل كملك الملوك ورئيس الكهنة السماوي وحمل الله الذبيحة الفريدة، وفي نفس الوقت هو قابل الصلوات والتقدمات. فتح الباب لإقامة كهنة يقدمون ذبيحة الإفخارستيا ويخدمون البشرية لكي يلتصقوا بالآب كأبناء له. قدَّم الكهنوت العام لكل المؤمنين حيث يقدِّمون ذبائح التسبيح وتقدمات العطاء لإخوة الرب والمحتاجين.
١٠ **كائن دائم النمو**	مع ما كان عليه آدم وحواء من عظمة وبهاء وكرامة وسلطان، فإن الله لم يخلقنا بطريقة جامدة (إستاتيكية)، بل كانت الفرصة أمامهما، لا ليحافظا على ما هما عليه	مع كون آدم الثاني كلمة الله غير المتغير، الذي لا ينقصه شيء وليس من شيء يمكن أن يُضاف إلى شخصه في عظمته وبهائه، فقد صار إنسانًا، لكي باسمنا ولحسابنا قيل إنه كان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة (لو ٢: ٥٢).

	فحسب، بل وينميان على الدوام. ولكن إلى أي مدى؟ هذا مـــا لا نستطيع أن نتنبأ عنه، لأنهما لـــم يتركا لنفسيْهما هذه الفرصة.	وهبنا فصحنا عطية روحه القدوس الذي لا يعرف الخمول، بل العمل الدائم لنمـــوٍ لا يتوقف.
	للأسف ليس فقط لم ينميـــا، وإنما انحدرا وسلَّما لنسلهما روح التهاون والانحدار، حتى نزلـــت البشرية إلى انحطاط رهيب!	في المسيح يسوع صار نمونا موضـــوع دهشة السمائيين. إنهم ينظرون ما يعده لنـــا السيد المسيح، فيزدادون شوقًا لخروجنا من هذا العالم، ويروننا شركاء مع المسيح فـــي المجد وفي نمو لا ينقطع!